

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول
والحضارة الإسلامية

مطبوعة التدريس السنة الثانية (ل م د)

مادة: مناهج الدعوة

إعداد: د. نور الدين سكحال

السنة الجامعية 2012-2013

مهمة الداعية ورسالته

تمهيد:

أول ما ينبغي أن يعرفه من يريد أن يتقدم إلى ميدان الدعوة، أن يدرك بدقة مهمة الداعية ووظيفته، حتى يسير في قيامه بهذه المهمة على بصيرة، وأن يعلم كذلك حكم القيام بهذه الوظيفة ليشعر بمسئوليته تجاهها، ويتعرف على فضل القائمين بها، لتزيد رغبته ويتضاعف جهده في القيام بها، وعاقبة التفريط فيها حتى لا يستهين بها، و يحرص عليها حرصه على أموره المعاشية.

1- مهمة الداعية:

إن معرفة مهمة الداعية ووظيفته تقتضي منا العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لتعرف على مهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين يعدّ الداعية خليفة لهم في دعوتهم. ومن خلال تدبرنا في النصوص الكثيرة المتعلقة بدعوتهم عليهم الصلاة والسلام، ندرك أنه كان لهم ثلاث وظائف أساسية كانوا يقومون بها في من أرسلوا إليهم هي: وظيفة البلاغ، ووظيفة التعليم والتزكية، ووظيفة التنفيذ والتطبيق.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوظائف الثلاث في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لربهما بعد فراغهما من بناء البيت: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ } {البقرة: 129}، كما أشار إليها قول الله تعالى مبيناً المهمة التي أرسل لأجلها خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم: { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ } {الجمعة: 2}.

فقد أشار قوله تعالى { يَتْلُو عَلَيْهِمْ } إلى وظيفة البيان والتبليغ، كما أشار قوله تعالى { وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } إلى وظيفة التربية والتعليم، أو ما يعبر عنه في المصطلحات الدعوية المعاصرة التكوين، كما أشار قوله تعالى: { وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } إلى وظيفة التطبيق والتنفيذ، لأنّ الكتاب في الآية القرآن الكريم والحكمة فيها هي السنة النبوية كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء¹، والسنة هي الجهد الذي بذله صلى الله عليه وسلم لتطبيق القرآن في حياة الفرد والمجتمع.

¹ - ابن كثير، التفسير،

واعتباراً لهذه الوظائف الثلاث التي تشملها الدعوة، عرّف بعض الباحثين المعاصرين الدعوة بأنها: " تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة"¹، وعرّفها باحث آخر بأنها: "الجهـد المنهجي المنظم، الهادف إلى تعريف الناس بحقيقة الإسلام، وإحداث تغيير جذري ومتوازن في حياتهم على طريق الوفاء بواجبات الاستخلاف، ابتغاء مرضاة الله ، والفوز بما ادخره لعباده الصالحين في عالم الآخرة"².

وقد ترد إلى أذهاننا بعض النصوص القرآنية التي تحصر وظيفة الرسول في البلاغ المبين فقط دون سواها من الوظائف، مثل قوله تعالى: {فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (المائدة:94)، وقوله سبحانه: { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } (النور:52).

والإجابة عن هذا الوارد أنّ هاتين الآيتين وأمثالهما من الآيات التي جاءت في نفس المعنى وردت في سياق إعراض الناس عن الدعوة، فقد ربطت قصر وظيفة الرسول على البلاغ بشرط وهو إعراض من وجهت لهم الدعوة، وهو ما نلاحظه على سبيل المثال في قوله تعالى: { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } (المائدة:94)، وفي قوله تعالى: { فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيكَ إِلَّا الْبَلَاغُ } (الشورى:45)، فحين يعرض المدعوون عن الدعوة لا يكلف الرسل إلا بالبيان والتبليغ فقط لإقامة الحجة عليهم، أما حين يستجيب المدعوون للدعوة، يكون المطلوب من الداعي تعليمهم وتزكيتهم، والعمل على تطبيق الدين في حياتهم. وتؤكد لنا وقائع السيرة النبوية قيام النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الوظائف الثلاث في دعوته لقومه، فقد كان صلى الله عليه وسلم يجتهد في تبليغ رسالة ربه إلى أفراد قومه من خلال الاتصال بهم في الأسواق وأماكن جلوسهم وأماكن الشعائر في موسم الحج، ثم يتولى بالتربية والرعاية من استجاب لدعوته منهم، فيجتمع بهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم، كما خصّص صلى الله عليه وسلم في مسجده بالمدينة مكاناً خاصاً يستقبل فيه من التحق بدعوته من أفراد القبائل العربية في دورات تعليمية تربوية، ثمّ قام صلى الله عليه وسلم بالوظيفة الثالثة حين أسّس المجتمع الإسلامي بالمدينة.

والحقيقة أنّ هناك علاقة تكامل بين هذه الوظائف الثلاث، حيث تكمل الثانية ما انتهت إليه الأولى، وتمهد الثانية للثالثة، ليتحقق الهدف المنشود وهو إحداث التغيير في الأنفس الذي يكون المقدمة لتغيير الله عز وجل ما بالناس، فبوظيفة البلاغ تصل المضامين الكبرى للإسلام إلى الناس، وبوظيفة التعليم

¹ - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1999، ص:17.

² -الطيب برغوث، منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة...، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص:67.

والتزكية يشرع في بناء النفوس المستجيبة على قيم الإسلام ومبادئه، ويمهّد الطريق لتطبيق نظام الإسلام في كافة مناحي الحياة، فيسطع نوره، فتشدد صورته المشرقة الناس إليه من كل فج عميق. ومما يوضح الدور الكبير لمرحلة التطبيق في الدعوة ما نلاحظه من خلال دراستنا للسيرة النبوية من أنّ الدعوة الإسلامية في عهدها المكي الذي استغرق ثلاثة عشر عاما لم تحرز توسعا كميّا متناسبا مع الجهد المبذول من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم، والزمن الطويل، في حين نجد أنّها في الفترة المدنية استطاعت أن تحقّق توسعا أفقيا هائلا في فترة زمنية وجيزة، لم تتجاوز عشر سنين، وذلك بسبب ظهور الإسلام في صورة مجتمع متميّز¹.

وإدراك الداعية أن مهمّته تشمل هذه الوظائف الثلاث يجعله يسير في الطريق الصحيح، ويحقّق بعمله من النتائج والثمرات ما لم يكن ليحقّقه لو أنّ مفهوم الدعوة في ذهنه بقي محصورا في وظيفة البلاغ فقط.

كما يمكنه هذا الإدراك من تقدير كلّ جهد يبذل للقيام بأي وظيفة من هذه الوظائف الثلاث، وعدم الاستخفاف بالجهود التي يركّز أصحابها على إحدى هذه الوظائف في أعمالهم الدعوية، بسبب مراعاتهم لإمكاناتهم وقدراتهم، أو لأولويات دفعتهم إلى ذلك. وفهم مهمّة الدعوة بهذا الاتساع، يجعل ميدان العمل الدعوي واسعا، يشمل جوانب متعدّدة، ويستوعب طاقات وجهودا كبيرة، ويصرف الدعاة عن التنافس والتزاحم على المجال الواحد، الأمر الذي قد يترتب عنه تباغض وتصارع.

يذكر أحد الباحثين أنّه سأل العلامة المودودي-رحمه الله- في جلسة خاصة عن رأيه في جماعة التبليغ التي نشأت في الهند، وانتشرت في كثير من البلدان، وكان بعض أفرادها يشدّدون في نقد المودودي وجماعته، فقال له الأستاذ المودودي: "إنهم يسدّون عنا ثغرة لا نستطيع سدّها، ولا ننتقدهم، ومنهم من ينتقدنا"².

2- حكم القيام بهذه المهمة:

اتفق العلماء على وجوب الدعوة، واختلّفوا في اعتبار هذا الوجوب وجوبا عينيا أو كفائيا، وقدم كلّ فريق من الأدلة ما يثبت صحة ما ذهب إليه، والأقرب إلى الحق هو تغيير الحكم بتغيير مفهوم الدعوة

¹ - الطيب برغوث، القدوة الإسلامية، ط1، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1984، ص:7.

² - البيانوني، المرجع السابق، ص: 22.

والمقصود بها، فإذا كان المقصود بالدعوة مفهومها الواسع جدا الذي يشمل كل فعل أو قول يراد به إعطاء صورة مشرفة عن دين الله، فإن الدعوة بهذا المفهوم واجب عيني على جميع المكلفين من المسلمين مهما كان اختصاصهم وعملهم، وإلى الوجوب العيني للدعوة بهذا المفهوم جاءت الإشارة في قوله تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } (آل عمران: 110).

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فإنّ الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه"¹.

أما المفهوم الخاص أو المتخصّص للدعوة، والذي يشمل القيام بالوظائف الثلاث التي أشرنا إليها سابقا، فإنّ الوجوب فيها كفائي، بسبب كونه محتاجا إلى تكوين متخصّص يؤهل صاحبه للقيام بمتطلباته، وهو أمر لا يتاح لكل أفراد الأمة، لذلك وجب على عموم الأمة الإسلامية أن توجه من أبنائها المقتدرين من يتخصّص للقيام بهذا الواجب نيابة عن جميع أفرادها، فإن لم تفعل لحقها الإثم. وإلى الدعوة بهذا المفهوم الخاص جاءت مخاطبة المسلمين بالتكليف في قوله تعالى: { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } (التوبة: 122).

ورجل الدعوة الذي نحن بصدد الحديث عنه في موضوعنا هو مَن وجهتهم الأمة إلى هذا الثغر، وضمنت له تكوينا متخصّصا للقيام بهذه المهمة الجليلة، فينبغي أن يدرك أن تفريطه في مهمته لا يأثم به هو وحده، وإنما يكون سببا في أن تأثم أمته معه كذلك، قال الشيخ العلامة ابن باديس: "كما كان الجهاد بالقرآن العظيم فرضا عليه [يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم]، فكذلك هو فرض على أمته هكذا على الإجمال، وعند التفصيل نجده فرضا على الدعاة والمرشدين الذين يقومون بهذا الفرض الكفائي عن المسلمين"².

وقد أشار رحمه الله إلى المفهوم الواسع للدعوة الذي يشمل المفهوم العام والمفهوم الخاص، وأكد على اشتراك أفراد الأمة في القيام به، كل على حسب كفاءته ومقدرته فقال: "فمن الدعوة إلى الله دروس العلوم كلّها مما يفقه في دين الله ويعرّف بعظمته وآثار قدرته ويدلّ على رحمة الله وأنواع نعمته.

¹ - صحيح البخاري: حديث رقم 67.

² - عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1982، ص: 61-62.

فالفقيه الذي يبيّن حكم الله وحكمته داع إلى الله، والطبيب المشرّح الذي يبيّن دقائق العضو ومنفعته داع إلى الله، ومثلهما كلّ مبين في كل علم وعمل.

ومن الدعوة إلى الله بيان حجج الإسلام ودفع الشبه عنه، ونشر محاسنه بين الأجانب ليدخلوا فيه، وبين مزعزي العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه.

ومن الدعوة إلى الله مجالس الوعظ والتذكير لتعريف المسلمين بدينهم، وتربيتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم على ما جاء به، وتحبيبهم فيه..

ومن الدعوة إلى الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتبة الاستطاعة.

ومن الدعوة إلى الله ظهور المسلمين - أفراداً وجماعات - بما في دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة، وعلم وعمل، وصدق وأمانة، فذلك أعظم مرغّب للأجانب في الإسلام، كما أنّ ضده أعظم منفّر عنه...

ومن الدعوة إلى الله بعث البعثات إلى الأمم غير المسلمة ونشر الكتب بألسنتها، وبعث المرشدين إلى عوام الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيهم"¹.

3- فضل القيام بهذه المهمة:

تدلّ على عظم فضل القيام بهذه المهمة النصوص الكثيرة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأقوال العلماء، وما يلحظه من يقوم بهذه المهمة من ثمرات في حياته.

ففي كتاب الله نقرأ قول الله تعالى في بيان الفضل الكبير للدعوة إلى الله: { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } (فصلت: 32)، وقوله تعالى: { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (يوسف: 108)، الذي يوضح أنّ الدعوة إلى الله هي وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه.

وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة، ذكر لأجر كبير، وفضل عظيم يناله من يقوم بهذه المهمة، نذكر منها الأحاديث الآتية:

¹ - المرجع نفسه، ص: 62.

. روى الإمام الشافعي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نصّر الله تعالى عبدا سمع مقالتي فحفظها، ووعاها، وأداها، فربّ حامل فقه غير فقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه"¹.

. عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا..²".

. عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، قال: فبات الناس يدوكون (أي يتحدثون) أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟، فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول، فقال: فأرسلوا إليه فأتوني به، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونا مثلنا؟، فقال: انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم ما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم"³.

أما أقوال العلماء ، فقد اعتبروا القيام بالدعوة عبادة من أعظم العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، فقد قال الشيخ الميداني: "ومن عبادة الله الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى هذا يمكن أن نفهم قول الله عز وجل: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ {الجن:19}، أي لما قام رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يعبد ربه بالدعوة إلى سبيله في قومه، عاداه قومه، واجتمعوا ضده، وأحاطوا به ليتخلصوا منه ومن دعوته"⁴.

وقد اعتبر الشيخ ابن باديس الدعوة ضربا من الذكر باللسان فقال: "ذكر اللسان وهو ضربان:

الأول: ذكر الله-تعالى- بالثناء عليه والاعتراف بنعمه وإظهار الفقر إليه بأنواع الأذكار والدعوات...

الثاني: ذكره تعالى بدعوة الخلق إليه، وإرشادهم إلى صراطه المستقيم الموصل إليه، بتعليم دينه والتنبيه على آياته وإنعاماته، وتبيين محاسن شرعه وتفهم أحكامه، وشرح حكمته في خلقه وأمره ، والترغيب والترهيب بوعدده ووعيدته، وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين في التبليغ عن رب العالمين وأتباعهم المؤمنين

¹ -أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

² - مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة...

³ - البخاري ومسلم.

⁴ - عبد الحمان حسن حبكة الميداني، فقه الدعوة إلى الله، ط1، دار القلم، دمشق، 1996، ص:70/1.

إلى يوم الدين، ولذا قال عطاء: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم وتطلق وتحج... وأشبه ذلك، وما سماه قليل من كثير، قصد به تقريب التبيين بالتمثيل"¹.
أما عن الثمرات التي يجنيها القائم بها فيلمسها في نفسه، ارتقاء في فكره، وسموا في روحه، وزيادة في معرفته بالناس والحياة، يشير أحد الدعاة إلى بعض هذه الثمرات بقوله: "حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في القلب، حتى تتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان، لأنه يجاهد نفسه كذلك أثناء مجاهدته للناس، وتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتفتح له أبدا وهو قاعد ساكن، وتبين له حقائق في الناس والحياة لم تكن لتبين له أبدا بغير هذه الوسيلة، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته ما لم يكن ليبلغه أبدا بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة"².

4- عاقبة التفريط في القيام بهذه المهمة:

كما أن للقيام بهذه المهمة فضلا عظيما يعود على الأمة المسلمة بأسرها، حين يقوم به المؤهلون من أبنائها أحسن قيام، فإن للتفريط في القيام بها آثارا وخيمة تمس الأمة كلها، حيث يسود فيها بسبب هذا التفريط الاستخفاف بأمر الدين، والاستهتار في الأخلاق، والتهوين من شأن الفضائل، مما يجعلها عرضة لعقوبة الله عز وجل، المتمثلة في الحرمان من رحمته سبحانه، وانتشار العداوات والخصومات، وتسليط الأعداء عليهم، والهلاك الوشيك.

وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من ذلك كله ضاربا المثل بما حدث لبني إسرائيل بقوله: "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده.

فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون، ثم قال: كلا، والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم"³.

¹ - ابن باديس، المرجع السابق، ص: 31-32.

² - سيد قطب، هذا الدين، ص: 10.

³ - سنن البيهقي الكبرى: 93/10، سنن أبي داود: 121/4 .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها فإننا نقبها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا، وإن تركوهم غرقوا جميعا"¹.

وهو تمثيل رائع لما يقع في حياة الأمة حين تفرط في هذا الواجب، فالذين تمكنوا من تزكية نفوسهم، والسمو بأرواحهم، هم من يوجد في أعلى السفينة، فهم يبصرون معالم الطريق، ويتولون قيادة السفينة لتصل إلى البر بسلام، أما الذين هم في أسفل السفينة فهم الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم وشهواتهم، فهم لا يرون الطريق، ولا يميزون بين الضار والنافع.

فإذا تخلى الذين هم في أعلى السفينة عن القيام بواجبهم المتمثل في الارتقاء بمن هم في الأسفل، ومنعهم عن الأعمال التي تجلب الضرر للمجتمع، فإن الانحطاط لا بد أن يمس من هم في الأعلى، فيتناقص عددهم بمرور الزمن وتكاثر الفساد، حتى تصير الغلبة في نهاية الأمر للفساد وأهله، فتغرق سفينة المجتمع في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصرون معها شيئا من النور. ومن أقوال العلماء التي بينت بعض الآثار المترتبة عن هذا التفريط:

قول العلامة وحيد الدين خان: " إن الدنيا معرضة للعقوبة الإلهية بسبب حرمانها من الحق، والمسلمون معرضون للعقوبة لإغفالهم واجب نشر الرسالة.. ولسوف تبقى هذه الحالة طالما بقي المسلمون متجاهلين مسؤوليتهم، إن الانشغال بشؤون لا تمت بصلة للدعوة، وتسمية تلك الشؤون "دعوة" ليس إلا جريمة تضاف إلى كثير من الجرائم التي سقط فيها المسلمون... ولسوف يجرمون بهذا الإهمال من رحمة الله سبحانه"².

وقوال الميداني: " وقام السابقون بتأدية وظيفة تبليغ الإسلام ونشره في الأرض، مع تقصيرات في بعض القرون، مسّهم بسببها ظلم وعدوان عليهم من الأمم، وبعض ذلّ وهوان"³.

صفات الداعية ومؤهلاته

¹ - سنن الترمذي، 470/4، وقال: حسن صحيح.

² - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط، ط1، دار الصحوة، القاهرة، ص:

³ - الميداني، فقه الدعوة، 25/1.

تمهيد:

إنَّ كلَّ مهمّةٍ بحسب طبيعتها تقتضي للنجاح في القيام بها أن يكون القائم بها متصفاً بمجموعة من المواصفات، أو مؤهلاً بمؤهلات تمكّنه من القيام بها على أكمل وجه، فالعلاقة وطيدة بين المهمة ونوعية المؤهلات التي تقتضيها، وهذه العلاقة قد يصلح شخص للقيام بمهمة معينة، ولا يصلح لمهمة أخرى، فقد ينجح في مهمة تربوية تعليمية ولا ينجح في مهمة إدارية.

ومّا يوضح لنا هذا الأمر النقاش الذي دار بين ملأ من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام ونبيّ بعثه الله إليهم، حيث طلبوا منه أن يجعل عليهم ملكاً يقودهم في قتالهم ضد أعدائهم، فأخبرهم أنّ الله عزّ وجل اختار لهم طالوت ملكاً، فتعجبوا من تعيينه ملكاً عليهم رغم أنه لا يملك المؤهلات لهذا المنصب الخطير في نظرهم، والتي تتمثل أساساً في أن يكون من أكثرهم ثروة ومالاً، فأخبرهم نبيهم أنّ المهمة المنوطة به تقتضي مؤهلات ذات صلة بها، فالقائد العسكري يشترط فيه أن تكون له دراية بفنون القتال وقدرات بدنية كبيرة واتصاف ببعض الصفات اللازمة لهذه المهمة، ولا علاقة للنجاح في هذه المهمة بكونه غنياً أو فقيراً.

وقد سجّل القرآن الكريم لنا هذا النقاش في قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (البقرة: 244-245).

وإلى هذه العلاقة بين المهمة وما تقتضيه من مواصفات ومؤهلات أشار يوسف عليه السلام حين طلب من الملك أن يولّيه وزارة الاقتصاد، فركّز على صفتين أساسيتين لا بد منهما للنجاح في القيام بهذه المهمة، وهما الأمانة والعلم، ذكرهما القرآن على لسانه عليه السلام في قوله تعالى: { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } (يوسف: 55).

أسهبنا في بيان هذا المعنى، وإيراد الشواهد عليه، رغم ما يبدو للناظر لأول وهلة بأن هذا الأمر واضح لا يحتاج إلى بيان واستدلال، وذلك بسبب ما يلاحظه الدارس لكتب فقه الدعوة عند طرقها لموضوع

صفات الداعية، من غفلة عن العلاقة الموجودة بين صفات الداعية والمهمة التي هو مكلف بها، واكتفاء بسرد مجموعة كبيرة من الصفات تمثل صفات المؤمنين عامة وليست صفات خاصة يتميز بها رجل الدعوة.

فالتناول السليم لموضوع صفات الداعية يقتضي استحضار المهمة الدقيقة له، والربط المحكم بين هذه المهمة وما تقتضيه من صفات ومؤهلات.

وقد أشرنا في المحاضرة السابقة إلى أن مهمة الداعية تتمثل في القيام بوظائف ثلاث: البلاغ والتزكية والتنفيذ، وكل وظيفة من هذه الوظائف تحتاج إلى نوع خاص من الكفاءات أو المؤهلات أو الصفات، يبعد أن تتوفر في شخص واحد- باستثناء الأنبياء عليهم السلام-، بل إنّ من الأنبياء عليهم السلام من كان يرى عدم توفّره على بعض المؤهلات التي تقتضيها وظيفة من وظائفه، فسأل الله أن يعينه بمن يملك مؤهلات قوية ذات صلة بتلك الوظيفة، فهذا موسى عليه السلام يسأل ربه أن يشدّ أزره بأخيه هارون لما يمتلكه من قدرة عالية على البيان يرى عليه السلام أنّه لا يمتلكها، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى على لسانه: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ (القصص:34)¹.

وخلاصة ما نريد قوله في هذا التمهيد أن تناول موضوع صفات الداعية ومؤهلاته ينبغي أن لا يتم بمعزل عن ملاحظة مهمّته.

وإذا أخذنا بالاعتبار هذه الملاحظة، يمكننا في حديثنا عن صفات الداعية أن نركّز على الصفات الأساسية الآتية:

1- المعرفة الجيدة بالإسلام:

أول صفة من الصفات الأساسية التي يجب أن يتصف بها الداعية لينجح في القيام بمهمته بوظائفها الثلاث، أن تكون لديه معرفة جيدة بالإسلام.

ومما نؤصل به لضرورة هذه الصفة للداعية، أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو أسوة الدعاة ومثلهم الأعلى قبل أن يؤمر بالإنذار والدعوة، أمر أولاً بالقراءة، حيث نزل عليه أولاً قوله سبحانه: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١) ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٢) ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (٣) الَّذِي عَلَّمَ

¹ - قد يقول القائل ألم يكن هارون أولى من موسى بالرسالة باعتبار فصاحته وبيانه؟، والجواب أن الوظيفة الأساسية التي اصطفى موسى عليه السلام للقيام بها والمتمثلة في إنقاذ بني إسرائيل وقيادتهم كانت تقتضي مواصفات تتجاوز حدود القدرة على البيان، ويمكن أن نفهم ذلك بالتأمل في عجز هارون عليه السلام عن التحكم في بني إسرائيل، وتمكن السامري من إضلالهم، حين ذهب موسى عليه السلام للقاء ربه.

بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق: 1-5)، ثم نزل عليه بعد ذلك قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ } (المدثر: 1-2)، ثم إن الله عز وجل تولى تعليمه بما يوحي إليه ، وأمره أن يسأله الزيادة في العلم في قوله سبحانه: { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } (طه: 114).
ونقصد بالمعرفة الجيدة للإسلام المعرفة التي تمكنه من فهمه في أصوله وفروعه، وتكسبه ملكة تقدره على إدراك كلياته ومقاصده.

فبهذه المعرفة الجيدة يعطي الداعية صورة واضحة وصحيحة عن الإسلام للناس، وبها يتمكن من الارتقاء بهم في مدارج الكمال الإنساني وهو يتولى تربيتهم وتزكيتهم بخطوات ثابتة سليمة بعيدة عن كل إفراط أو تفريط، كما يوفق بفضل هذه المعرفة إلى الوسائل والأساليب التي يجعل بها الدين واقعا في حياة الناس وأعمالهم.

وقد بين الإمام ابن القيم-رحمه الله- ضرورة العلم للدعوة في عبارة قصيرة دقيقة فقال: " وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حدّ يصل إليه السعي"¹.

وقد عدّ النبي صلى الله عليه وسلم من علامات غياب أسباب الهداية في حياة الناس غياب العلماء، وظهور المتعلمين الذين يضلّون الناس بجهلهم، قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا"².

كما يمكن أن ندرك دور المعرفة الجيدة بالإسلام من خلال حديث: " يحمل هذا الأمر من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين"³.

فالقدره على معرفة التحريف في الدين والغلو فيه لا تحصل إلا لمن كانت له معرفة دقيقة بالدين في أصوله وفروعه.

2- المعرفة الجيدة بالواقع:

إن الهدف من الدعوة في نهايته هو نقل الإنسان فردا ومجتمعاً من حال يكون فيها بعيداً عن قيم الدين وأحكامه إلى حال يعيش فيها منسجماً مع هذه القيم والأحكام.

¹ - ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، 195/1.

² - صحيح البخاري: 50/1، صحيح مسلم: 2058/4.

³ -

ومن المعلوم أن هذه النقلة كما تحتاج إلى معرفة جيدة بمبادئ الدين وأحكامه، تحتاج كذلك إلى معرفة جيدة بالإنسان، والواقع المحيط به في جوانبه المختلفة، باعتبار أن له دورا في تشكيل فكره ونفسه وسلوكه.¹

وتبصر هذه المعرفة الداعية بالتحديات التي تحول دون الاستجابة لدعوته، وتمثل صعوبات لتمثل قيمها وأحكامها بعد الاستجابة لها، فيختار من المناهج والأساليب والوسائل ما يتجاوز به تلك التحديات. كما أن هذه المعرفة تمكنه من تحديد الأولويات التي ينبغي أن يركز عليها في دعوته، وعلى أساسها توضع الخطط والبرامج.

ومما نوصّل به لضرورة هذه الصفة لرجل الدعوة اختيار النبي من قومه الذين عاش فيهم، ويعرف كل صغيرة وكبيرة من شؤونهم، ثم الاهتمام الذي نجده في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعرفة ما عليه الناس في مجتمعه بل والمجتمعات المحيطة في الفترة المكية وفي الفترة المدنية، واستثماره صلى الله عليه وسلم لتلك المعرفة في دعوته، كما تدلّ على ذلك مواقف كثيرة من دعوته صلى الله عليه وسلم، نذكر منها على سبيل المثال:

* نهي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن أشياء ثم إذنه لهم بها، لاعتبارات تتعلق بهم وبأحوالهم، مثل نهيهم عن زيارة القبور وادخار لحوم الأضاحي والشرب في الأوعية، ثم إذنه لهم بذلك كله.²

* أمره صلى الله عليه وسلم المستضعفين من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لأنها أرض صدق وبها ملك لا يظلم عنده أحد.³

ويبين الإمام ابن تيمية رحمه الله أن رجل الدعوة لا يكون على حال واحدة في قيامه بوظيفة البلاغ أو التزكية، بل يجب أن يراعي في ذلك الحال التي يكون عليها المدعو والظروف التي تحيط به، يقول- رحمه الله-: "تارة يأمر، وتارة ينهى، وتارة يبيح، وتارة يسكت عن الأمر والنهي أو الإحاطة... كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء حتى علا الإسلام وظهر.

¹ - تشبيهه ببلغ قدمه الأستاذ مالك بن نبي في بيان ضرورة هذه المعرفة، حين شبهها في العالم المادي بالحديد الذي حين تعرف الإنسان على خصائصه استطاع تسخيرها لأغراضه المختلفة. وجهة العالم الإسلامي،

² - قال صلى الله عليه وسلم: "إني كنت نهيتمكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة، ونهيتمكم عن الأوعية فاشربوا فيها واجتنبوا كل ما أسكر، ونهيتمكم عن لحوم الأضاحي أن تحبسوها بعد ثلاث فاحبسوها ما بدا لكم". مسند أحمد، 1/145.

³ - سيرة ابن هشام، 1/347.

فالحبي للدين والمجدد للسنة لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أنّ الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها... وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك... وإن لم يطقه لم يكن واجبا عليه في هذه الحال.. وإذا لم يكن واجبا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه عليه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمّا عفا عنه إلى وقت بيانه.. ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، لأنّ الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل...، ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل، لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم"¹.

ويقدم الإمام الشاطبي للداعية ثلاث ضوابط تعينه على معرفة ما يجب عليه إبلاغه وما يجب عليه إرجاؤه أو تركه، فيجعل من هذه الضوابط ملاحظة الواقع أو ما عبّر عنه بـ"حال الزمان وأهله" حيث قال -رحمه الله-: "ليس كلّ ما يعلم بيتٌ وينشر، وإن كان حقا، وقد أخبر مالك عن نفسه أنه عنده أحاديث وعلم ما تكلم فيها ولا حدّث بها، وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل، فتنّبّه لهذا. وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها، فانظر مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤدّ ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إمّا على العموم إن كانت مما تقبلها العقول، وإمّا على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم.. وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري وفق المصلحة الشرعية والعقلية"².

3- قوّة الصلّة بالله تعالى:

يغي أن يقوي رجل الدعوة صلته بالله تعالى ، ويرتقي بهذه الصلّة في مقامات الدين ، من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان ، ويزيد في الارتقاء حتى يبلغ مقام الإحسان، الذي تبلغ فيه صلته بالله تعالى أوجها، حيث يعيش دوما مع الله تعالى فيما يقوم به من عمل، وما يكون عليه من حال.

¹ - مجموع الفتاوى، 60-58/20. نقلا عن عبيد حسنة، منهجية التغيير، ص: 32-33.

² - الموافقات، 190-189/4.

ويثمر فيه بلوغه هذا المقام مجموعة من الأخلاق الباطنية منها: محبة الله عز وجل، والتوكل عليه والإخلاص له.

وهي أخلاق باطنية ضرورية للنجاح في الدعوة ، حيث تظهر آثارها في كلام الداعية صدقا وتفاعلا بكل كيانه، وفي مواقفه قوة وثباتا وصبرا على المساومات والإعراض والأذى، وفي علاقته بالمدعوين بعدا عن الطمع فيهم، والابتغاء بالدعوة شيئا آخر غير مرضاة الله تعالى و ثوابه.

وقد وُجِّه رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ الفترة التي سبقت بدأ نزول الوحي عليه إلى توثيق صلته بربه سبحانه، فكان عليه الصلاة والسلام يتحنّث في غار حراء الليالي ذوات العدد، وببداية نزول الوحي عليه أمر صلى الله عليه وسلم بتقوية صلته بربه بالقيام وتلاوة القرآن والذكر، كما يدل عليه قوله تعالى له: { يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) } (المزمل: 1-8).

واستمر الوحي يوجِّهه في هذا الاتجاه كما نلاحظه في قوله تعالى له: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) } (الإنسان: 23-26).

4- الاهتمام لهموم الناس والشعور بمشكلاتهم:

من أهم الصفات التي تمكن الداعية من النجاح في مهمته أن يتجاوز في تفكيره وفي مشاعره حدود الأنا والذات إلى الشعور القوي بالآخرين وهمومهم ومشكلاتهم، والحرص على خدمتهم، وجلب النفع لهم ، ودفع الضرر عنهم.

وأصل هذه الصفة في نفسه ما يملأ قلبه من شعور بالرحمة والشفقة على عباد الله يرتقي إلى درجة رحمة الأم بولدها.

ومما يدل على عظم هذه الصفة ما ذكره القرآن الكريم من اتصاف الأنبياء عليهم السلام جميعا بها، بدءا بنوح عليه السلام الذي كان يردد على مسامع قومه: { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } (الأعراف: 58)، وقد ظهر مصداق شعوره في حرصه عليه السلام على تبليغ الدعوة لقومه في كل وقت وبكل الأساليب واستمراره في ذلك دون كلل أو ملل ألف سنة إلا خمسين عاما، وختاما برسول

الله صلى الله عليه وسلم الذي وصفه ربه لقومه بقوله سبحانه: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } (التوبة: 129) ، وهو ما أوضحه صلى الله عليه وسلم حين صوّر الوظيفة التي يقوم بها بمثل بليغ فقال: "إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا، فجعلت الدواب والفراس يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه"¹.

ويثمر هذا الشعور في رجل الدعوة كما أشار النص القرآني تألما لما يكون في حياة الناس من آلام ومشكلات سببها الإعراض عن دين الله، وحرصا شديدا على تقديم النصح والإرشاد لهم ، وعملا على تخليصهم مما يعانونه بسلوك جميع السبل الممكنة ، واستخدام كل الوسائل المشروعة.

وقد يكلف هذا الشعور الداعية بذل جهود كبيرة، وتجعله يوسّع أعماله لتشمل ميادين كثيرة، تكون على حساب نفسه وراحته ومصالحه، دون أن يشعر بشيء من الندم والحسرة ، فهذا أحد أعلام الإصلاح يتحدث عن نفسه فيقول: " لقد كنت في فجر حياتي العملية أقوم بواجبي في المدرسة خير قيام ، مواظبة على الوقت ومحافظة على النظام وحسن اعتناء بالدرس، ثم أخرج إلى ميدان المسجد والسوق والعشيرة والميادين العامة، والمشاكل الخاصة... وأواسي كل ذي حاجة، مدفوعا بعاطفة حبّ الناس"².

5- الجاذبية الأخلاقية:

وهو تعبير جميل عبّر به أحد الباحثين³، باعتبار أن الأخلاق السامية تجذب الناس إلى الداعية كما تجذبهم الأرض إليها بجاذبيتها، أو كما يجذب المغناطيس المعادن.

وليس المقصود بها الاتصاف ببعض الأخلاق الحسنة فحسب فذلك مطلوب من المسلمين جميعا، بل التخلّق ببعض الأخلاق التي تجعله ألفا مألوبا ومحبوبا عندهم، وذلك لا يكون إلا لمن تخلّق بأخلاق لا يتمكن منها عموم الناس نذكر منها: الصدق والأمانة، واللين والبعد عن الفظاظ، الكرم والبعد عن البخل، المداراة والمرونة في المعاملة، الحلم والعفو و سعة الصدر، والتواضع والبعد عن الكبر.

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن الأخلاق الحسنة هي أحسن وسيلة لتقوية العلاقات بغيرهم، وإعطاء صورة مشرقة عن دينهم، فقال صلى الله عليه وسلم موجّها لهم: "إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق"¹.

¹ - صحيح مسلم: 911/5.

² - محمد علي دبور، نفضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، 207/3.

³ - محمد الريشهري، القيادة في الإسلام، دار الحديث، ط1، ص: 247.

ويبين القرآن الكريم أن الجاذبية الأخلاقية للنبي صلى الله عليه وسلم كانت أحد أهم أسباب نجاحه في دعوته، والتفاف الناس من حوله، وأرشده ربه سبحانه إلى تمثل مجموعة من الأخلاق من شأنها أن تزيد من جاذبيته الأخلاقية منها: اللين والعمو وتقدير من حوله ومشاورتهم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لِيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ (آل عمران: 159).

وبتربية الوحي وتكميله له بلغت جاذبيته الأخلاقية صلى الله عليه وسلم درجة عظيمة عبر عنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم: 4)، أصبحت فيها شخصيته تفعل فيمن حولها فعل السحر، ولذلك اتهمه أعداؤه بأنه ساحر².

ومن النماذج التطبيقية التي يمكن أن نذكرها كمثال على دور خلقه العظيم في كسب وتغيير من حوله رغم فظاظتهم وسوء أخلاقهم، ما روي أن أعرابيا جاء إليه صلى الله عليه وسلم يطلب منه عطاء، فأعطاه، ثم قال: أحسنت إليك؟، قال الأعرابي: لا، ولا أجملت.

فغضب المسلمون وقاموا إليه، وقد همّوا أن يؤدّبوه بالعنف، فأشار إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله، فأرسل إليه وزاده شيئا، ثم قال له: "أحسنت إليك؟"، قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنك قلت ما قلت، وفي نفسي أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب ما في صدورهم عنك، قال نعم.

فلما كان الغد جاء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك؟، قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: مثلي ومثل هذا، كمثل رجل له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدها إلا نفورا، فناداهم صاحبها، فقال لهم: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها فأخذ من قمام الأرض فردها، حتى جاءت واستناخت، وشدّ عليها رحلها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار³.

¹ - المستدرک، 213/1.

² - محمد الريشهري، المرجع السابق، ص: 248.

³ -

6- صفات عملية :

- من الصفات المهمة للداعية نوع من الصفات يمكن أن نسّميه بالصفات العملية، وذلك لكونها تساعده كثيرا على إتقان القيام بوظائف دعوته.
- من هذه الصفات العملية نذكر الصفات التالية:
- القدرة على الحديث بطريقة جيدة ومؤثرة.
 - الأناة وعدم الاستعجال.
 - القدرة على الاستمرار في الدعوة بلاغا وتربية وتنفيذا.
 - القدرة على استيعاب المستجيبين للدعوة تربية ورعاية وتنظيما.
 - القدرة على الاستفادة من إمكاناتهم العقلية والجسمية لخدمة الدعوة .
 - القدرة على حلّ المشكلات الطارئة.¹

الإعداد الرسالي للداعية

تمهيد:

إن مهمة الداعية بوظائفها الثلاث (البلاغ، التربية، التنفيذ) تقتضي أن يكون القائم بها مؤهلا بمؤهلات معرفية وروحية وسلوكية وعملية، تجعله قادرا على إعطاء صورة واضحة ومشرقة عن رسالته بفكره وسلوكه.

وتحقيق هذه المؤهلات في من يتقدم للقيام بهذه المهمة يحتاج إلى إعداد وتكوين خاص، تقوم به مؤسسات تعليمية وتربوية بإشراف معلمين ومربين مستوعبين لهذه الأبعاد، وبرامج شاملة لها.

وبسبب افتقار الدعوة الإسلامية لمؤسسات بهذه المواصفات، بقي إعداد الدعاة لتحقيق هذه المؤهلات فيهم خيارا فرديا، وجهدا شخصيا، فقلّ بسبب ذلك عدد الدعاة المكتسبين لهذه الأبعاد².

ولتحقيق هذه الأبعاد ولو في حدّها الأدنى، ينبغي أن نهتم في إعداد المؤهلين للدعوة بتنمية الجوانب المعرفية والروحية والسلوكية والقدرات القيادية فيهم.

وفيما يلي شرح لهذه الجوانب، وبيان لدور كل جانب منها في الإعداد الرسالي للداعية.

¹ - انظر تفاصيل تتعلق بهذه الصفات في: سعيد حوى، الرسول، 198-242.

² - طه جابر فياض العلواني،

1. الإعداد المعرفي:

ويهدف الإعداد المعرفي إلى تنمية القدرات العقلية للمؤهل للدعوة، وتزويده بالمعارف والعلوم الضرورية التي تمكنه من النجاح في مهمته.

أولاً - تنمية القدرات العقلية: إنّ العمل الأول الأساس الذي ينبغي أن يركز عليه في إعداد الداعية هو إحكام تربية قدراته العقلية، بشكل يسمح له بفهم كل ما يتصل بدعوته، فهما يتسم بالدقة والعمق (مضامين الدعوة، الواقع والمدعويين، المنهج والأساليب والوسائل). ومن هذه القدرات التي ينبغي أن تنمى فيه : قدرة التأويل، قدرة التدبّر، قدرة التفكير، قدرة التذكر، قدرة الإبصار، و قدرة الحكمة.

كما ينبغي كذلك تدريبه على منهج سليم في استخدام قدراته العقلية، وذلك بالتركيز على:

- تدريبه على النقد الذاتي بدل التفكير التبريري.
- تدريبه على التفكير الشامل بدل التفكير الجزئي.
- تدريبه على التفكير العلمي بدل الظنّ والهوى.
- تدريبه على التفكير التجديدي بدل التفكير التقليدي¹.

ثانياً - المعارف الضرورية لمهمته:

ويمكن تقسيم هذه المعارف إلى ثلاثة أقسام: معارف تمكّنه من المعرفة الجيدة بالإسلام الذي يعدّ مضمون رسالته، ومعارف تمكّنه من المعرفة الدقيقة والعميقة بواقع من يدعوهم، ومعارف تمكّنه من استيعاب مناهج الدعوة وأساليب الإصلاح ووسائله.

- المعارف اللازمة للمعرفة الجيدة بالإسلام:

علوم اللغة العربية : وذلك لأن اللغة العربية هي الوعاء اللغوي لمصدر الرسالة قرآنا وسنة، لا يستطيع تفهم وتدبر ما جاء فيهما دون معرفة جيدة باللغة العربية وعلومها.

وتتحقق له هذه المعرفة الجيدة بدراسة أربعة أنواع من علوم اللغة: علم النحو، علم الصرف، علم البلاغة، علم معاني المفردات المدوّن في المعاجم.

علم أصول الفقه: وهو علم يمكّنه من معرفة المصادر التي تستفاد منها مضامين الرسالة في جوانبها المختلفة (العقدية_والعبادية والعملية)، ويبيّنه بالقواعد التي تعينه على الفهم الصحيح والدقيق

¹ - انظر تفاصيل في الموضوع في: ماجد عرسان الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية ...، ص: 73-110.

لنصوص القرآن والسنة، ويعرفه بمقاصد الشريعة ليفهم الفروع في إطارها، ويدرك الكثير من حكم الشريعة وأسرارها.

الدراسات القرآنية: وهي دراسات تقوي معرفة الداعي وصلته بالمصدر الأول لرسالته، وتشمل هذه الدراسات ضبط القرآن كله تلاوة، وحفظ ما لا يقل عن خمسة أجزاء منه، ودراسة تفسير مجمل لكل سورة وآياته، ودراسة تفسير موسع لما لا يقل عن خمسة أجزاء منه، ودراسة عدّة موضوعات قرآنية ضمن منهج التفسير الموضوعي، ودراسة كتاب موسّع في علوم القرآن، ودراسة مؤلفات بيّنت شبهات المستشرقين حول القرآن واهتمت بالردّ عليها.

الدراسات الحديثية: وتشمل هذه الدراسات: الاطلاع على أمّهات المصنفات التي دوّنت فيها الأحاديث النبوية، ودراسة علوم الحديث، والحرص على قراءة الكتب التي اهتمت بشرح الأحاديث النبوية وفي مقدمتها كتاب "فتح الباري شرح صحيح البخاري" لابن حجر وشرح صحيح مسلم للنووي، ودراسة مؤلفات تناولت موضوعات مختلفة من خلال السنة النبوية.

علم العقيدة الإسلامية: وينبغي أن تكون دراسته لهذا العلم مرتبطة بالنصوص القرآنية والحديثية، ويتعدّد قدر الإمكان عن المسائل الفلسفية التي ظهرت في تاريخ هذا العلم لأسباب دعت إليها، ويركز على دراسة أركان الإيمان وآثارها في حياة الإنسان فردا ومجتمعاً كما هو منهج القرآن في التعامل مع المسائل العقدية.

علم الفقه: لا بد أن يكون الداعي متمكناً من أهم أحكام فقه العبادات والمعاملات، وتكون لديه القدرة على مراجعة أية مسألة فقهية في أي باب من أبواب الفقه.

وتبدأ دراسته للفقه على مذهب من المذاهب المعتمدة، بشرط اطلاعه على الأدلة واجتهادات فقهاء المذاهب الأخرى وأدلتها، لئلا يصاب بداء التعصب المذهبي.

كما ينبغي أن لا تتوقف هذه الدراسة عند حدود فقه العبادات أو فقه بعض المعاملات المالية، بل تتجاوزها إلى دراسة أنظمة الإسلام لشتى مناحي الحياة (النظام الاجتماعي، النظام الاقتصادي، النظام السياسي..).

وينبغي أن تشمل دراسته كذلك القواعد الفقهية لأنها تعينه على استيعاب كثير من جزئيات الفقه، وكذا أنواعاً من الفقه تعينه كثيراً أثناء قيامه بأعمال الدعوة مثل فقه الأولويات وفقه الموازنات.

علم الأخلاق الإسلامية: وموضوعه التعريف بالأخلاق الإسلامية وطرق اكتسابها، ويحتاج إليه في تربيته لنفسه، ثم في قيامه بوظيفة التربية للمستجيبين لدعوته.

وينبغي أن يدرس أمهات المؤلفات في هذا العلم، من مثل مؤلفات الإمام أبي حامد الغزالي ومؤلفات العلامة ابن القيم.

- المعارف المعينة على معرفة الواقع وفهمه:

إن فهم الواقع في جوانبه العقيدية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، يتطلب استيعاب مجموعة من العلوم والمعارف التي تعين الداعية على تجاوز النظرة السطحية التي تقف عند ملاحظة الظاهر دون تعمق في البحث عن الأسباب والعوامل، وكذا النظرة التجزيئية التي تجعله يفصل بين جانب وآخر في فهم ما يجري

ومن هذه العلوم نذكر:

علوم الدين: إن معرفة الدين عقيدة وشرعية يعد آلية مهمة لفهم الواقع فهما صحيحا، ذلك لأن الدين هو الذي ساهم في تشكيل هذا الواقع منذ قرون من الزمن.

فكثير من المعتقدات والأفكار والسلوكيات التي تصدر عن الناس في العالم الإسلامي لا يمكن الفهم الصحيح لها، ما لم ينطلق الدارس لها من خلفية إسلامية في دراستها وتحليلها . وكذلك الأمر بالنسبة لواقع الأمم والمجتمعات الأخرى، فإن فهمه يحتاج إلى معرفة جيدة بالدين أو الأيديولوجيا التي توجه فكر تلك المجتمعات وتصرفاتها ونظمها.

علم التاريخ: إن الواقع الحاضر في جوانبه المختلفة هو نتيجة لتراكمات أفكار وأعمال وأحداث كانت في فترات زمنية طويلة، ولذلك يصعب فهم كثير من التصرفات والأحداث الحاضرة فهما يتسم بالعمق ما لم تتم الاستعانة بمعرفة جيدة لتاريخ هذا الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي.

العلوم الإنسانية: إن فهم الواقع لا يتحقق إلا بفهم الإنسان فردا وجماعة ومجتمعاً، وفهم الظروف المحيطة به.

ويتطلب تحقيق هذا الفهم دراسة مجموعة من العلوم التي تهتم بفهم الإنسان في محيطه الاجتماعي والمادي، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، والعلوم السياسية.

- المعارف المتعلقة بمناهج الدعوة وأساليبها:

يحتاج المؤهل للدعوة للنجاح في مهمته إلى استيعاب مجموعة من المعارف التي تحدد له المناهج السليمة والأساليب الناجعة في الدعوة ، نذكر منها: تاريخ رجال الدعوة من الأنبياء عليهم السلام، السيرة

النبوية، دراسات مناهج الدعوة وأساليبها ووسائلها، دراسات إعلامية واتصالية يستفيد منها طرق الاتصال والبلاغ، ودراسات في مجال التربية يستفيد منها طرق التدريس وأساليب الإقناع والتأثير. ويحتاج في المقابل إلى معرفة المناهج والوسائل التي يستخدمها خصوم دعوته لنشر أفكارهم وتشويه صورة دعوته في أذهان الناس.

2. الإعداد الروحي

يعدّ الإعداد الروحي أحد أهمّ أنواع الإعداد التي ينبغي أن يتوجه إليها الاهتمام في تكوين الداعية وتأهيله للقيام برسالته، ذلك لأنّ وظيفته ليست تعليمية بحتة أساسها نقل كم من الأفكار والمعلومات إلى المدعوين، بل تتجاوزها إلى جعل هذه المعلومات والأفكار أرضية ينطلق منها في بناء شخصيتهم، وتشكيل سلوكياتهم، ودفعهم إلى تغيير ما بأنفسهم، ليتغير ما بواقعهم من جوانب قصور وفساد. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنه تواجه الداعية وهو يحاول القيام بوظائفه تجاه المدعوين مجموعة من التحديات النفسية والاجتماعية والسياسية لا يتمكن من تجاوزها إلا إذا كانت فيه صفات راسخة أساسها تربية روحية جيّدة من مثل الإخلاص والتجرّد والصبر والتوكّل.

ويبدأ هذا الإعداد الروحي بجانب معرفي، يتعرّف فيه المؤهل للدعوة على هذا الجانب المهم في شخصيته الدعوية، ومنهج الارتقاء به وتكميله، وذلك من خلال ما كتبه العلماء المحقّقون في كتب الأخلاق والتزكية والتربية الروحية، ثمّ تأتي الممارسة العملية لما تعلّمه، من خلال سلوك طريق الجاهدة، الذي سيرتقي به بين مقامات الإسلام والإيمان ليلبغ مقام الإحسان حيث يعبد الله كأنه يراه، أو إن شئت إلى مقام الولاية الذي أشار إليه الحديث القدسي الذي يقول فيه الله تبارك وتعالى: " من آذى لي فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ ممّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به..."¹.

وكما بيّن هذا الحديث ونصوص أخرى من كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم فإنّ الطريق إلى الارتقاء بالروح إلى مقام الإحسان أو مقام الوليّ يمرّ عبر سلسلة من الأعمال والمجاهدات، تبدأ بالفرائض التي افترضها الله عزّ وجلّ على جميع المسلمين من صلاة وصيام وزكاة وحج، وهي كفيلة بتحقيق الحدّ الأدنى من تزكية الإنسان لنفسه، كما يؤكّد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلّم تعليقا على قول الأعرابي: " والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص " بقوله: " أفلح إن صدق"²، حيث نفهم منه

1.

2.

أنَّ الشعائر المذكورة في الحديث كافية لتزكية نفس الإنسان لتستأهل الفلاح الذي وعد الله كلَّ من
 نجح في تزكية نفسه في قوله تعالى: { **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾** } [الشمس:9] وفي قوله سبحانه: {
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ } [الأعلى: 14].

فالصلاة مثلاً كشعبيرة من هذه الشعائر تقوم بدور عظيم من حيث كونها تحلِّص المقيم لها المقدر لها
 حقَّ قدرها من كثير من الآفات النفسية والسلوكية التي يجملها النص القرآني في قوله تعالى: { **إِنَّ
 الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** } [العنكبوت:45]، كما أنها من أهم الأعمال التي تصل
 الإنسان بالله تعالى وتقوي صلته به كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في نفس الآية السابقة { **وَلَذِكْرُ اللَّهِ
 أَكْبَرُ** } [العنكبوت: 45]، كما أنها تثمر فيه صفات نفسية واجتماعية مهمّة، من حرص على إنجاز
 الأعمال في أوقاتها المخصصة لها، ومداومة عليها رغم وجود الملهيّات والمعوّقات، ومساعدة إلى إعانة
 المحتاجين وإغاثة الملهوفين، كما يؤكد ذلك قوله تعالى في معاتبته المستهينين بصلاتهم: { **الَّذِينَ هُمْ عَنْ
 صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾** } [الماعون:5-7].

وبعد الفرائض يطلب من المؤهل للدعوة المزيد من التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بأنواعها من صلاة
 وقيام وصدقة وتلاوة للقرآن وذكر ودعاء.

وبهذا التقرب يصل الداعية إلى مقام يتولاه الله عز وجلّ، فيوفقه للخروج من الظلمات إلى النور،
 ويرزقه البصيرة التي تهديه إلى الصواب في القضايا والمواقف المختلفة، كما يتولى تأييده فيما يقوم به من
 أعمال دعوية، وحفظه ورعايته ليتمكن من إنجاز مهمّته.

ومراجعة الآيات التي كانت تنزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بداية البعثة تعدّه للقيام
 بمهمّته ندرك أن عددا كبيرا من هذه الآيات كان يوجّهه إلى أعمال ترتقي بها روحه من قيام وقراءة
 للقرآن وذكر { **يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ ﴿١﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾**
أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ } **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾** **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ**
أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ **إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾** **وَإِذْ كَرِهَ اللَّهُ لِسْمِ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ**
تَبَتُّلًا ﴿٨﴾ } [المزمل:1-8].

3. الإعداد السلوكي

ونقصد بالإعداد السلوكي للداعية تمكينه من كسب مجموعة من الأخلاق والسلوكات التي تجعل منه صورة مشرقة لدعوته، وتجعله قادرا على الاستمرار في القيام بمهمته رغم ما يواجهه من صعوبات وتحديات.

ولأهمية هذا النوع من الإعداد لنجاح أعمال الداعية، تولى الله عز وجل من يختارهم لتبليغ رسالته إلى عباده في كل محطات حياتهم، قبل البعثة وبعدها، ليجعل منهم نماذج مشرقة لهذه الرسالة، حيث يعصمهم من سائر المنغرات والذنوب، فرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كان الصادق الأمين قبل البعثة، وبعد البعثة كمل القرآن خلقه، فبلغ في كل خلق من أخلاق الكمال الإنساني قمته، حتى استحق هذه الشهادة الإلهية { وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ } [القلم: 4].

وكان لهذا الكمال السلوكي والأخلاقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم دور كبير في نجاحه في التأثير على نفوس المدعوين، وإقناعهم بالالتفاف حول دعوته، كما يؤكد ذلك مثلا قوله تعالى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } [آل عمران: 159]. وإرشادا من رسول الله صلى الله عليه وآله للدعاة من بعده إلى أهمية هذا الجانب في التأثير على الناس وكسبهم قال لهم موجهها: " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن ليسعكم منهم بسط الوجه وحسن الخلق"¹.

وتحذيرا من الآثار السلبية التي تترتب عن عدم إعداد الداعية هذا النوع من الإعداد، جاء تشديد النكير على الذين يقولون ما لا يفعلون في آيات عديدة منها قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ } [الصف: 2-3]، وقوله تعالى: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ } [البقرة: 44]، وجاء في الحديث: " يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى..."².

ويكون الأساس في إعداد الداعية سلوكيا ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من نصوص حدّدت لنا صفات الأنبياء وهم أكمل الدعاة من البشر، وكذا صفات الصالحين من المؤمنين

1

2 الإشارة إلى عدم انتفاع الناس بعلمه فهم في النار معه، الإشارة إلى أقتاب البطن ودلائها على غرضه من تعليمه ودعوته، وتشبيهه بالحمار في الرحى، الذي يرتحل والمكان الذي يقصده هو الذي ارتحل منه، وهذا العالم لم يحقق العلم فيه مقصده.

الذين بلغوا درجات عالية من الكمال في أخلاقهم، ممن يسميهم القرآن بالمؤمنين والمتقين وعباد الرحمن.

كما نؤكد أن هذا الإعداد السلوكي مرتبط بما سبقه من إعداد معرفي وإعداد روحي، بل إن هذا الإعداد المعرفي والروحي هما أساسه الذي يبعد أن يتحقق من دونهما، وهو بينه القرآن الكريم في العديد من آياته حين يربط بين السلوك والجانب الروحي، كما نلاحظ ذلك مثلاً في ربطه بين صفتي التواضع والإعراض عن الجاهلين وبين ارتقاء أرواحهم عن طريق قيام الليل، وذلك في قوله تعالى: { وعباد الرحمن... }، ونفس الأمر نلاحظه في ربط القرآن الكريم في توجيهه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: { إنا نحن نزلنا عليك... }، حيث أرشده إلى الذكر والصلاة بالليل ليكون قادراً على تمثّل خلق الصبر في مواجهة إغراض المكابرين وأذاهم.

4. الإعداد القيادي

تعرف القيادة بأنها " عملية تحريك مجموعة من الناس باتجاه مخطط ومحدد"، أو " هي عملية تهدف إلى التأثير في الآخرين"، أو " هي القدرة على توظيف المبادئ والوسائل والأساليب من أجل غايات واضحة"¹.

انطلاقاً من هذه التعريفات للقيادة يمكن أن نقول إن المقصود بالإعداد القيادي إكساب الداعية مجموعة من المهارات التي تمكنه من ممارسة القيادة، لإنجاز أعمال الدعوة المختلفة. ويؤكد كثير من الدارسين أنّ تكوين الداعية ينبغي أن يتمحور حول تعليمه ممارسة القيادة بين أقرانه وعلى مستوى الجمهور والمجتمع عامة².

ومهارات القيادة التي يطلب إعداد الداعية لاكتسابها هي كل المهارات ذات الصلة بالمجالات التي يتحرك فيها بدعوته، ويمكن أن نجملها في الأنواع الآتية من المهارات³:

- مهارات الاتصال والتخاطب: حيث تطور قدرته على الاتصال بالآخرين، ليكون قادراً على التأثير فيهم وإقناعهم، فيطور أسلوبه في الحديث والخطابة والتدريس والمحاضرة وإدارة حوار وندوة، وأسلوبه في الكتابة بأنواعها العلمية والأدبية ليكون قادراً على استثمارها في أعماله الدعوية، وطرق تعامله مع الآخرين.

¹ - هشام الطالب، التدريب القيادي،

² . سعيد حوى، الرسول، ص. 49.

³ . انظر بعض التفاصيل المتصلة بهذه المهارات في: هشام الطالب، دليل التدريب القيادي، ص. 64. 65.

- المهارات الإدارية: حيث يدرّب على الأسس الجيدة لإدارة الأعمال والاجتماعات، ويعلم مبادئ التخطيط، وأسس التقويم، وطرق حلّ المشكلات المختلفة.

- مهارات اجتماعية: حيث ينمى فيه البعد الاجتماعي، ويصير بالوسائل والأساليب التي تزيد من فاعليته في وسطه الاجتماعي، ويكسب خبرات بها يتمكن من جعل الخدمة الاجتماعية وسيلة مهمة من وسائل دعوته.

وتنمى هذه المهارات عن طريق دورات دراسية وتدريبية، تعمق من معارف المؤهل للدعوة في هذه الجوانب، وتزوّده بأحدث الدراسات الاجتماعية المتصلة بها، كما تتيح أمامه فرص الاستفادة من أصحاب الخبرة الذي نجحوا في اكتساب مهارات عالية في بعض هذه الجوانب.

والخلاصة أنّ إعداد داعية يمكنه النجاح في القيام بالمهام المطلوبة منه يحتاج إلى إعداده إعداداً شاملاً للجوانب المعرفية والروحية والسلوكية والقيادية من شخصيته، وهو أمر لا يتيسر تحقيقه مع عدم وجود مؤسسات متخصصة في هذا النوع من الإعداد الشامل.

وفي انتظار أن تتطور مؤسسات تكوين الدعاة لضمان هذا التكوين الشامل، يبقى الخيار المتاح أن يتعاون الدعاة كلّ بما يملكه من مؤهلات وكفاءات في إنجاز الوظائف الثلاث للعمل الدعوي.

تحديد أهداف الدعوة

إنّ أول عمل ينبغي أن يقوم به رجل الدعوة قبل شروعه في أعماله الدعوية، هو الاجتهاد في تحديد ما أمكنه من أهداف لدعوته تحديداً دقيقاً، يريد بلوغها من خلال اتصاله بالمدعوين، وعمله لإصلاح واقعهم.

1- مفهوم أهداف الدعوة وأنواعها:

أولاً- المفهوم اللغوي:

الهدف في اللغة كلمة تدل على نصب وارتفاع، و على كلّ شيء عظيم مرتفع، ولذلك سمّي الرجل الشّخيص الجاني هدفاً، ويطلق الهدف كذلك ويقصد به الغرض¹.

¹ - أحمد بن فارس بن زكريا: المرجع السابق، ج.6، ص.32.

وفي لسان العرب يعني الهدف المرمى "وكلّ شيء رأيتَه قد استقبلك استقبالاً، فهو مُهَدَفٌ ومُسْتَهَدَفٌ، وقد استهدف أي انتصب، ومن ذلك أخذ المَهْدَفُ لانتصابه لمن يَرْمِيه"¹.

وفي القاموس المحيط نجد أنّ الغرض هو الهدف ومعناه "كلُّ مُرْتَفِعٍ من بِنَاءٍ أو كَثِيبٍ رَمْلٍ أو جَبَلٍ"². والمفهوم الذي تلتقي عليه القواميس في تحديدها لمدلول الهدف هو المرتفع الذي يُرى من بعيد، والذي يمكن أن يتخذ كَمَعْلَمٍ لتحديد المسار الصحيح الذي يسلك لبلوغ مكان معين، وهو المفهوم الذي يمكن أن ننطلق منه في تحديد المفهوم الاصطلاحي.

هذا في القواميس العربية، أما في قواميس اللغة الفرنسية فإن الهدف يعرف تعريفاً هو أقرب إلى التعريفات الاصطلاحية، وذلك بسبب حرص واضعي هذه القواميس على تناول المصطلحات في إطار ما هو متداول في الحياة العملية، ومن تعريفات الهدف الذي تستخدم كلمتان للدلالة عليه وهما **objectif** و **but** التعريفان الآتيان:

الهدف هو نتيجة نريد بلوغها

(**Un objectif est un résultat que l'on veut atteindre**)³

أو هو الغاية التي نقتح الوصول إليها

(**But: fin que l'on se propose d'atteindre**)⁴.

ثانياً- المفهوم الاصطلاحي

يمكن أن نعرّف الهدف في الاصطلاح بأنّه ما يراد الوصول إليه من خلال القيام بعمل معين، أو هو الأمر الذي يرغب الشخص في تحقيقه، أو "ما هو متوقع إنجازه من جانب المؤسسات والوظائف والأقسام والفرق والأفراد"⁵.

وقد عرّفه أحد الدارسين في مجال الدعوة بأنه "المطلب الذي يوجه إليه الدعاة قصدهم، أو الغاية التي يسعون من أجلها"⁶.

ثالثاً - أنواع الأهداف

¹ - ابن منظور: المرجع السابق، ج.3، ص.345.

² - الفيروز آبادي: المرجع السابق، ج.1، ص.1114.

³ - [http://fr.wikipedia.org/wiki/Objectif_\(but\)](http://fr.wikipedia.org/wiki/Objectif_(but))

⁴ - petit Larousse illustré 1991p:161.

⁵ - مركز تميّز للمنظمات غير الحكومية: تحديد الأهداف، أدلة تدريبية، ع 24، 7 يناير 2003م.

⁶ - البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص.198-199.

المجال القريب الذي يمكننا أن ننطلق منه في تحديد أنواع أهداف الدعوة هو مجال العلوم التربوية، حيث يتداول في هذا المجال مصطلحان في دراسة موضوع الأهداف التربوية وهما: مصطلح الغاية ومصطلح الهدف.

فالأهداف في المجال التربوي نوعان: نوع يطلق عليه مصطلح الغايات أو "الأهداف الأغراض"، و"تشتمل على الأغراض والمقاصد النهائية التي يراد إنجازها وتحقيقها على المستويات الفردية والاجتماعية"¹، ونوع آخر يطلق عليه مصطلح "الأهداف الوسائل"، و"تشتمل على الوسائل والأدوات الفعالة لتحقيق "الأهداف الأغراض"².

فالغايات هي أهداف كلية عريضة بعيدة المدى، تستند إلى نظام قيمى فلسفى اجتماعى، ووظيفتها تحديد الوجهة التي ينبغي بلوغها من خلال الجهود التعليمية المختلفة، وهي أهداف تتجاوز المؤسسات التربوية إلى كل المؤسسات التي تقوم بدور في بناء الإنسان كالأسرة والمساجد ووسائل الإعلام والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والرياضية.

ومن أهم الخصائص التي تتميز بها الغايات أو الأهداف النهائية، أنها تصاغ في عبارات عامة واسعة شاملة، وأنها تعبر عن النواتج التربوية التي يتوخى النظام التربوي تحقيقها، وأن تحقيقها يتطلب مدة طويلة من الزمن، و أنها تمثل الجذع الذي تتفرع منه الأهداف التربوية العامة³.

و يقابل هذه الغايات في العمل التربوي ما يطلق عليه الأهداف الكلية البعيدة في العمل الدعوي، الذي يشمل التعليم ويتجاوز إلى المجالات الأخرى، وهي الأهداف التي تريد الدعوة بلوغها في المحصلة النهائية لجميع الجهود التي يبذلها الداعية.

أما النوع الثاني من الأهداف في المجال التعليمي فهي الأهداف التعليمية ويطلق عليها كذلك المقاصد التعليمية وهي أهداف مشتقة من الغايات التربوية، وهي ليست أهدافاً نهائية في ذاتها بل هي أهداف مرحلية أو بمعنى آخر وسائل إلى الغايات التربوية.

¹ - ماجد عرسان الكيلاني: أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية، ط2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،

هيرندن (فرجينيا)، 1417هـ/1997م، ص. 25.

² - المرجع نفسه، ص. 25.

³ - الغايات والأهداف التعليمية <http://www.madinaedu.gov.sa>

و من هذا التحديد للأهداف في المجال التربوي يمكن أن نصنّف الأهداف في مجال الدعوة إلى أهداف كلية بعيدة وتسمى أيضا أهداف أغراض (buts)، وأهداف قريبة وسيطة وتسمى أيضا أهداف وسائل (objectifs).

فالأهداف الكلية البعيدة هي التي تشتمل على الأغراض النهائية التي يراد بالدعوة إنجازها وتحقيقها على المستويات الفردية والاجتماعية، أما الأهداف القريبة أو الوسيطة فهي التي تشتمل على الوسائل والأدوات الفعالة لتحقيق الأهداف البعيدة، أو هي الأهداف التي يراد بها تجاوز بعض العقبات التي تحول دون الوصول إلى الأهداف الكلية البعيدة¹.

من الأمثلة التي يمكن أن نوضح بها هذين النوعين من الأهداف في العمل الدعوي، قول الشيخ ابن باديس بمناسبة الاحتفاء بذكرى المولد النبوي مؤكدا على الأهداف النهائية التي تتمثل في نظره في تجديد واقع المجتمع والأمة تجديدا شاملا انطلاقا من المرجعية الإسلامية: " فلنجعل يوم ولادته من كلّ عام [يوما] نعزم فيه على تجديدنا روحيا وعقليا وأخلاقيا وعمليا وتاريخيا، تجديدنا إسلاميا محمّديا في جميع ذلك"²، ثم قوله مؤكدا ضرورة اهتمام الدعوة الإسلامية بتحديد الأهداف المرحلية التي تتحقق بها هذه الأهداف الكلية البعيدة، والتي بها تتمكن من تقويم أعمالها، ومعرفة النقطة التي وصلت إليها في مسيرتها، وذلك حين يقول في نفس المناسبة: "علينا أن نتفقد عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا، ونعزم فيما اندثر منها على التجديد، ولنعين بعضها ولنجعله على الخصوص محلّ العناية الكبرى بالتجديد منا حتى نحاسب أنفسنا عليه في الذكرى الآتية"³.

وقول الشيخ إبراهيم بيوض في مقال كتبه في جريدة الأمة، يبين فيه وجوب الاهتمام بتحديد الدعوة الإسلامية لهذين النوعين من الأهداف في أعمالها، انطلاقا من دراسة جادة للواقع بأوضاعه المختلفة: " عرف الشرقيون بالتبريز في التفكير والتخيل والنظر، وبالتقصير في التحقيق والتطبيق، فكم من مشاريع ماتت في المهود لأن خططها لم ترسم على حقائق عملية، وأهدافها لم تحد بالواقع والممكن القريب، بل رسمت على نظريات خيالية اعتاضت على التطبيق، واستعصت عند التحقيق، واتخذت لها الأحلام والأمانى أهدافا، فطاشت السهام ولم تقرطس، فضيع الوقت، وخسر العمل، وفاتت الفرصة"⁴.

¹ - منير شفيق: ثوابت التغيير ومتغيراته، مجلة الإنسان، العدد1، السنة الأولى، شعبان 1410هـ/ مارس 1990، تصدر عن دار الأمان للصحافة والنشر، باريس، ص. 31.

² - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص. 297.

³ - المصدر نفسه، ص. 297.

⁴ - إبراهيم بيوض، الفرقان بين أمير السيف والبيان الباروني باشا والأمير شكيب أرسلان، مصدر سابق.

2- خصائص الأهداف الناجحة وشروطها

في الدراسات المتخصصة في المجال التربوي والمجال الإداري تذكر مجموعة من الخصائص والشروط ينبغي أن تتحقق في الأهداف القريبة أو المرحلية لأي منظمة أو هيئة حتى تتمكن من إنجازها، وبلوغ أهدافها النهائية، ومن هذه الخصائص والشروط نركز على الآتي:

أولاً- أن تكون هذه الأهداف منسجمة مع قيم المؤسسة وأهدافها النهائية، ولا تتعارض مع سياسة المؤسسة أو المنظمة، وإلا قادت في نهاية المطاف إلى أهداف نهائية غير أهدافها، وحالت بينها وبين الانتقال بالواقع الذي هو محل عملها إلى الوجهة التي تريدها.

ثانياً- أن تكون هذه الأهداف دقيقة، أي واضحة محددة تحديداً جيداً، وينتفي عنها كل غموض يمكن أن يؤثر بالسلب على الفهم الصحيح لها من قبل العاملين لتحقيقها، أو من قبل الجمهور الواسع الذي تتحرك فيه المؤسسة أو الهيئة، وتتوجه إليه بخطابها وعملها.

ثالثاً- أن تكون قابلة للقياس، حيث تكون مرتبطة بمعايير الأداء الكمية أو النوعية، وتمتلك الهيئة مؤشرات يمكن على أساسها قياس مدى التقدم الذي أحرزته في تحقيق هذه الأهداف، وهو ما يضمن تحكّمها في عملية إنجاز هذه الأهداف، ويساعدها كثيراً في التقويم الدقيق لأعمالها.

رابعاً- أن تكون ممكنة التحقيق، حيث تتوافق مع القدرات والإمكانات التي تمتلكها المؤسسة وأفرادها، وتكون في الظروف المحيطة بالمؤسسة قابلة للإنجازها.

وتحقق هذه الخاصية يبعد الهيئة عن تبني أهداف قد تلبي احتياجات فعلية للواقع الذي تتحرك فيه، ولكنها لا تستطيع تحقيقها بسبب عدم امتلاكها للموارد اللازمة من مال، ووقت، ومعدّات، ومساندة الآخرين لها، أو نقص خبرة وتدريب، أو لوجود عوامل خارجية تقع خارج سيطرة الهيئة تحول دون تحقق تلك الأهداف.

خامساً- أن تكون مرتبطة بالوقت، حيث يمكن تحقيقها خلال إطار زمني محدد، فيربط الهدف بآجال محددة، وهذا التحديد ضروري لتفادي بذل طاقة أكثر من اللازم لتحقيق هذا الهدف، وكذا لتركيز الجهود لتكون الإنتاجية أكبر في الأجل المحدد.

سادساً- أن تكون أهدافاً واقعية، تلبي احتياجات حقيقية في الواقع الذي تحركت المنظمة لتغييره، ولا تكون أهدافاً مستوحاة من تجارب تاريخية سابقة، أو من تجارب مجتمعات أخرى تختلف في ظروفها عن المجتمع المستهدف بالتغيير، ولو كانت مجتمعات معاصرة.

هذه هي أهمّ الخصائص والشروط التي إذا تحققت في الأهداف القريبة التي تتبناها أية منظمة تكون مؤهلة لإنجاز هذه الأهداف وبلوغها، وقد اختصرت بعض المؤسسات البحثية هذه الشروط في كلمة " SMARTE "، حيث يشير كل حرف من الحروف إلى شرط من الشروط باللغة الفرنسية¹.

Spécifique S= الدقة والوضوح **Mesurable = M** يمكن قياسه

Applicable = A القابلية للتطبيق

Réaliste = R واقعي

Temporel = T مرتبط بالوقت

Écologique = E تحافظ على الأشخاص ولا تكلفهم معاناة غير محتملة

3- أهمية تحديد أهداف الدعوة:

تتمثل أهمية تحديد أهداف دقيقة للعمل الدعوي في الأمور التالية:

- تمكن الداعية من ممارسة عمله على بصيرة، وتجعله يسير بثقة واطمئنان صوب هذه الأهداف.
- تضمن استمرار الداعية في عمله، وتمكنه من تنميته وتطويره و تحقيق إنجازات عديدة في المجالات المختلفة.
- بوجودها يكتب القبول لعمل الداعية بين الناس، لأنها بأهدافها القريبة تلي احتياجاتهم، وتقدم حلولاً لمشكلاتهم.
- بتحديد الأهداف القريبة تتوفر الأرضية التي على أساسها يراجع الداعية أعماله، ويتمكن من تقويمها.

4- مخاطر الذهول عن تحديد أهداف الدعوة:

من المخاطر التي تترتب عن إهمال الداعية تحديد أهداف بعيدة وقريبة لعمله ما يلي:

- إن الغفلة عن تحديد الأهداف الكلية البعيدة يترتب عنها التيه عن المسار الصحيح في الدعوة، والضياع في السبل التي تبعد الداعية عن الأهداف الحقيقية لدعوته.
- إن الغفلة عن تحديد الأهداف القريبة يترتب عنها وقوف العمل الدعوي عند حدود الشعارات، والعجز عن التحرك بواقع الناس في اتجاه الإصلاح في المجالات المختلفة.
- العجز عن معرفة ما الذي حققته الدعوة، وما الذي يجب أن تعمل لتحقيقه.

¹ - [http://fr.wikipedia.org/wiki/Objectif_\(but\)](http://fr.wikipedia.org/wiki/Objectif_(but))

. عجز الداعية عن تقديم صورة واضحة عن دعوته، تمكن المخاطبين من فهمها والالتفاف حولها.
. توقف العمل الدعوي عند رحيل قيادته المستوعبة لأهدافه.

5- كيفية تحديد أهداف الدعوة:

إن تحديد الأهداف الكلية البعيدة والأهداف المرحلية القريبة تحديدا دقيقا يحتاج إلى فهم عميق ل:
- الوحي كتابا وسنة، ليدرك الداعية منهما الأهداف والمقاصد التي جاء الإسلام لتحقيقها في حياة الناس، وهو ما يعينه على تحديد الأهداف الكلية البعيدة لدعوته، وكذا ليدرك من خلال دراسته لدعوات الأنبياء عليهم السلام ضرورة تحديد أهداف مرحلية للدعوة، من خلال ملاحظة الواقع وما فيه من مظاهر ضعف وفساد.

- الواقع في جوانبه المتعددة، لتبين له المشكلات التي يتخبط الناس فيها، والتحديات التي تحول دون استجابتهم للدعوة، فيجعل من أهداف دعوته القريبة تقديم حلول لهذه المشكلات، وما به تتجاوز تلك التحديات .

6- نماذج لتحديد الأهداف في دعوات الأنبياء عليهم السلام:

كنا في دراستنا لجهود بعض رجال الدعوة من الأنبياء عليهم السلام في مادة "الدعوة ورجالها" قد أكدنا على حضور نوعين من الأهداف في عمل الأنبياء عليهم السلام، الأهداف الكلية النهائية ولاحظنا أنها كانت مشتركة بين الجميع وتمثل في الأهداف الآتية:

* إقامة الحجّة على الناس: والدليل على كون هذا الهدف هدفاً كلياً، وليس هدفاً مرحلياً، أنه غير مرتبط بظروف قد تتغير بتغير الزمان والمكان، وأن الإشارة إليه كهدف للدعوة كان في إطار بيان الهدف من بعثة مجموعة كبيرة من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وختمت الآيات التي أشارت إلى ذلك بقوله تعالى: {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 164].

* تعبيد الناس لله وحده: وصنفنا هذا الهدف مع الأهداف الكلية لأنه كان هدفاً مشتركاً دعا إليه الأنبياء عليهم السلام جميعاً كما تدل على ذلك النصوص القرآنية الكثيرة التي سجلت لنا دعوتهم لأقوامهم، وهو ما لخصه القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} [النحل: 36].

* تحقيق التقوى فيهم: واعتبرنا تحقيق التقوى هدفاً كلياً لأنها كانت وصية الله عز وجل لعباده عبر التاريخ نقلها إليهم أنبيأؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام، كما تؤكد ذلك آيات عديدة منها قوله تعالى { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ } [النساء: 131].

* إقامة الدين وعدم التفرق فيه:

وقد وردت الإشارة إلى هذا الهدف في قوله تعالى: { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [الشورى: 13]، وواضح من السياق أن هذا الهدف هدف كلي لأنه مشترك بين الأنبياء عليهم السلام، ولأن الدين المطلوب إقامته في أصوله واحد وإن اختلفت الشرائع.

* تحقيق العدل في حياة الناس:

يشير إلى هذا الهدف قول الله تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد: 24].

فقد بين هذا النص القرآني أنّ من أهداف بعثة الرسل إنزال الكتب التي تتضمن شريعة الله لعباده، التي تعتبر الميزان الذي به يتحقق العدل في حياة الناس.

* الوصول بهم إلى مغفرة الله في الدار الآخرة: وقد أشار إلى هذا الهدف قول الله عز وجل على لسان رسله عليهم السلام يخاطبون أقوامهم: { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ } [إبراهيم: 13].

* إنقاذهم من العذاب وتأخيرهم إلى أجل مسمى:

وقد أشار إلى هذا الهدف قول الله عز وجل: { قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى } [إبراهيم: 13].

ويؤكد هذا الهدف قول الله تعالى متحدثاً عن قوم يونس: { فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَأَنْفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ } [يونس: 98].

هذا عن الأهداف الكلية، أما الأهداف المرحلية فقد وقفنا في دراستنا لدعوة موسى عند مجموعة من الأهداف المرحلية ابتعث موسى عليه السلام لتحقيقها، أجمالناها في الأهداف الآتية:

أولاً- تخلص فرعون وملئه من طغيانهم: ويبين هذا الهدف قوله تعالى: { **أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزْجَىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾** } (النازعات: 17-19)، وقوله تعالى: { **وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾** } (الشعراء: 10-11).

ثانياً- تحرير بني إسرائيل من الاستعباد والاستضعاف: ويوضح هذا الهدف قوله تعالى: { **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض** } (القصص: 4)، وقوله تعالى: { **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾** } (الشعراء: 16-17).

ثالثاً- إصلاح حال بني إسرائيل: ويبين هذا الهدف قوله تعالى: { **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** } (إبراهيم: 5)، وقوله تعالى: { **وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴿٢﴾** } (الإسراء: 2).

رابعاً- إقامة ملك لبني إسرائيل: ويشير إلى هذا الهدف قوله تعالى: { **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين** } (القصص: 4)، وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً بني إسرائيل: { **وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة عليكم، إذ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكا، وآتاكم ما لم يوت أحدا من العالمين، يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم..** } (المائدة: 22-23).

ويتضح هذا الأمر أكثر في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث كانت لدعوته صلى الله عليه أهداف مرحلية كثيرة، ومنها مثلاً أن الهدف البعيد لدعوته هو إيصال الدعوة إلى جميع الناس، لكن عمله صلى الله عليه وسلم لتحقيق هذا الهدف البعيد مرّ بمجموعة من الأهداف المرحلية، حيث عمل صلى الله في المرحلة الأولى على إيصال الدعوة إلى بعض المقربين، ثم بعد ذلك لأهل مكة خاصة باعتبارها أم القرى، ثم لعرب الجزيرة، ثم خارج الجزيرة العربية.

6. نماذج لتحديد أهداف للدعوة من خلال جهود دعوية معاصرة:

ونكتفي تحت هذا العنوان بالإشارة إلى اهتمام بعض المؤسسات الدعوية بتحديد أهداف واضحة لأعمالها الدعوية، بالإشارة إلى هذه الأهداف سواء كانت أهدافاً كلية أم مرحلية:

أولاً- نموذج جماعة الإخوان المسلمين في تحديد الأهداف:

حدّدت المادة الثانية من النظام الداخلي للجماعة أهداف الجماعة، وهذا نصها:
الإخوان المسلمون هيئة إسلامية جامعة، تعمل لإقامة دين الله في الأرض، وتحقيق الأغراض التي جاء من أجلها الإسلام الحنيف، ومما يتصل بهذه الأغراض:

أ. تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة والمسلمين خاصة، وشرحها شرحاً دقيقاً، يوضحها ويردها إلى فطرتها وشمولها، ويدفع عنها الأباطيل والشبهات.

ب. جمع القلوب والنفوس على مبادئ الإسلام، وتجديد أثرها الكريم فيها، وتقريب وجهات النظر بين المذاهب الإسلامية.

ج. العمل على رفع مستوى المعيشة للأفراد، وتنمية ثروات الأمة وحماتها.

د. تحقيق العدالة الاجتماعية والتأمين الاجتماعي لكل مواطن، ومكافحة الجهل والفقر والريزلة، وتشجيع أعمال البر والخير.

هـ. تحرير الوطن الإسلامي بكل أجزائه من سلطان غير إسلامي، ومساعدة الأقليات الإسلامية في كل مكان، والسعي إلى تجميع المسلمين جميعاً حتى يصيروا أمة واحدة.

و. قيام الدولة الإسلامية التي تنفذ أحكام الإسلام وتعاليمه عملياً، وتحرسها في الدخل، وتعمل على نشرها وتبليغها في الخارج.

ز. مناصرة التعاون الدولي مناصرة صادقة، في ظل الشريعة الإسلامية التي تصون الحريات وتحفظ الحقوق، والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية على أساس من تآزر الإيمان والمادة، كما كفلت ذلك نظم الإسلام الشاملة.

والملاحظ أن هذه الأهداف شاملة لمناحي الحياة العديدة، ولكنها كبيرة وواسعة جداً، يحتاج تحقيقها إلى تحديد مجموعة كبيرة من الأهداف المرحلية القريبة التي توضح كيفية تحقيقها.

ثانياً- نموذج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تحديد الأهداف:

جاء في القانون الأساسي للجمعية إشارة إلى أهدافها في الفصل الرابع حيث نقرأ ما يلي:

" القصد من هذه الجمعية هو: نشر الدين الإسلامي على وجهه الصحيح البعيد عن كل بدعة، ومحاربة كل ما يجرمه صريح الشرع، كالخمر والميسر والآفات الاجتماعية الأخرى، ومحاربة الجهل، والبطالة، والإسراف، وكل منهي عنه بطبيعته من طرف الدين، والأخلاق الفاضلة".
وأخرجت الجمعية من عملها ما يتعلق بالعمل السياسي، حيث نقرأ في الفصل الثالث من القانون نفسه: "يمنع بتاتا كل بحث سياسي، وكذلك كل تدخل في أية مسألة سياسية داخل نطاق الجمعية".
وفي دراستنا لنصوص القانون الداخلي للجمعية وجهود أعلامها الدعوية يمكن أن نستخلص مجموعة من الأهداف الكلية والمرحلية كانت تعمل لتحقيقها، يمكن أن نجملها في النقاط الآتية:
الأهداف الكلية النهائية:

- إعادة الجزائريين إلى الالتزام الصحيح بالإسلام
- تحقيق نهضة شاملة في المجال الاقتصادي
- خدمة الإنسانية بتقديم نموذج صادق عن الإنسان المكرّم في دائرة الفرد وفي دائرة الجماعة والمجتمع،
يكون قادرا على تسخير ما يصل إليه من منجزات معنوية ومادية في خدمة الإنسانية من حوله،
ووضع منهج واضح أمام الإنسان في عصره ليستعيد به هذه الكرامة التي افتقدها في حياته الفردية والاجتماعية.

- تحقيق استقلال الجزائر عن فرنسا
أما الأهداف المرحلية فهي كثيرة جدا يمكن الإشارة منها إلى ما يلي:
- تصحيح العقائد وتخليص الجزائريين من مظاهر الشرك
- التفقه في الدين بالرجوع إلى أصوله
- العمل على إحياء الشعائر التعبّدية في نفوس الناس وتعظيمها
- تكوين نخبة متعلمة.
- إصلاح التعليم في مقرراته ومناهجه.
- التشجيع على تعلّم الحرف وإنشاء المصانع وتنمية الأموال عن طريق التجارة
- الاستفادة من التجربة الفرنسية في الإدارة والاقتصاد والصناعة
- تربية الفرد والارتقاء به في درجات الكمال الإنساني
- بلوغ الكمال الإنساني على المستوى المجتمعي

- تحقيق الأخوة الإسلامية بين المسلمين

- ترسيخ مقومات الانتماء الديني والوطني في نفوس الجزائريين

- تنظيم المجتمع وتأطيره

- تحرير المؤسسات الإسلامية من قبضة الاستعمار الفرنسي

ثالثاً- نموذج المعهد العالمي للفكر الإسلامي في تحديد الأهداف:

وهو مؤسسة ركزت جهودها على الإصلاح الفكري، ومن أهدافها:

أ. توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.

ب . استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.

ج . إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانية وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

والملاحظ أن هذه المؤسسة حصرت جهودها في المجال الفكري لقناعة المؤسسين لها أن أزمة المسلمين في أصلها أزمة فكرية، فحدّدت لنفسها مجموعة من الأهداف في هذا المجال توضح رؤيتها لمنهج حل هذه الأزمة.

و ما نريد أن نؤكد في الأخير أن التحديد الدقيق لأهداف العمل الدعوي أمر لازال لم يحظ بالاهتمام الكافي من قبل الكثير من القائمين بالدعوة إلى الإسلام، سواء في ذلك المؤسسات الرسمية أم الجمعيات أم الجهود الفردية، حيث تغلب على كثير منهم العمومية في تحديد الأهداف، والاستغراق في ترديد الشعارات.

وما لم تنتقل الدعوة الإسلامية من هذه الحال إلى حال تحدّد فيه أهدافها تحديداً دقيقاً فإنها تبقى تراوح مكانها دون أن تتمكن من تحقيق نتائج معتبرة في أيّ ميدان من الميادين.

وسائل الدعوة

قبل ذكر أهمّ الوسائل التي يستعين بها الداعية لبلوغ أهداف دعوته، نحدّد أولاً مفهوم الوسائل، ونبين أهمّ الشروط التي ينبغي أن تتوفر فيها لتكون موصلة إلى أهدافها.

1. مفهوم وسائل الدعوة

بينما مفهوم مصطلح الدعوة في محاضرتنا الأولى عن مهمة الداعية، وأكدنا أنه يشمل وظائف ثلاث البلاغ والتربية والتنفيذ، ويبقى لنا أن نحدّد مفهوم مصطلح الوسائل.

الوسائل في اللغة جمع مفردة وسيلة، وهي ما يتوصّل به إلى الشيء ويتقرّب به إليه¹.

أما وسائل الدعوة في المفهوم الاصطلاحي فقد عرّفت تعريفات عديدة، نقف منها عند هذين التعريفين، فقد عرّف أحد الدارسين الوسيلة حين تحدّث عن وسائل الدعوة فقال هي: " ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية أو مادية"².

والذي يهّمنا في هذا التعريف هو تصنيف صاحبه الوسائل إلى مادية و معنوية، وهو تصنيف واسع جدا لا يحدّد لنا مفهوم الوسائل تحديدا دقيقا، ومّا يبين لنا ذلك ما ذكره صاحبه حين أراد أن يحدّد المقصود بالوسائل المادية والمعنوية، فوجد نفسه أمام أمر واسع من البعيد التحكّم فيه، يقول -وقد أراد التحديد-: " وزيد بالوسائل المعنوية جميع ما يعين الداعية على دعوته من أمور قلبية، أو فكرية، وذلك كالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، والتفكير والتخطيط، وما إلى ذلك من أمور لا تحسّ ولا تلمس، وإنما تعرف بآثارها..."

وزيد بالوسائل المادية: جميع ما يعين الداعية من أمور محسوسة أو ملموسة، وذلك كالقول والحركات والأدوات والأعمال"³.

وعرّفها باحث آخر محاولا التفريق بينها وبين الأساليب، تفاديا لما يحدث من خلط بين الوسائل والأساليب بقوله: " الوسيلة تشمل كلّ فن أو مادة أو آلة تستعملها حركة التغيير وتتوسّل بها للوصول إلى أغراضها، أما الأسلوب فهو الطريقة التي تستعمل بها هذه الوسيلة لتوجّهها إلى مقصد معين أو غاية بذاتها"⁴.

ولنا على هذا التعريف ملاحظتان، الأولى تتعلق بالمصطلحات التي استخدمها صاحبه في تحديد ماهية الوسيلة، فباستثناء مصطلح "آلة" الذي يشير إلى شيء محدّد، فإن المصطلحين الآخرين "الفن" و"المادة" يميلان مدلولات واسعة جدا لا تساعدنا كثيرا في تحديد مفهوم الوسيلة، والملاحظة الثانية تتعلق بمحاولة صاحب التعريف التفريق بين الوسائل والأساليب حيث قدّم اجتهادا له قيمته، ولكنّه لا

¹ - ابن منظور: المرجع السابق، ج11، ص ص. 724-725.

² - محمد أبو الفتوح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت (لبنان)، 1420هـ/ 1999م، ص.49.

³ - المرجع نفسه ، ص. 283.

⁴ - محمد زرمان: الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ص. 276.

يَمَكِّننا من التمييز الدقيق بينهما لما بينهما من تداخل، وبالإمكان ملاحظة هذا التداخل حين الاطلاع على الدراسات التي تناول فيها أصحابها وسائل الدعوة وأساليبها، حيث نجد بعض الدارسين ينظرون إلى الأسلوب على أنه منهج في الدعوة تحققه وسائل كثيرة ومتعددة، وليس مجرد طريقة في استخدام وسيلة من الوسائل، فالموعظة عندهم أسلوب في الدعوة يركز على مخاطبة الإنسان من حيث هو شعور ووجدان، بغرض تليين قلبه، ودفعه إلى مراجعة نفسه، والتغيير من سلوكاته، وتحقيق بوسائل كثيرة.

وانطلاقاً من هذين التعريفين ومن الملاحظات التي سجّلناها عليهما، يمكننا القول إن وسائل الدعوة هي نشاطات بشرية فردية كانت أم جماعية وإمكانات مادية تسهم في تحقيق كلٍّ من الأهداف المرحلية والأهداف البعيدة للعمل الدعوي.

2. شروط الوسيلة الناجحة

اشترط في وسائل الدعوة لتكون موصلة إلى أهدافها، وتحقيق نتائج جيدة، مجموعة من الشروط، نركز على بيان أهمّها فيما يلي:

أول هذه الشروط أن تكون هذه الوسائل مشروعة، ويُقصد بالمشروعية هنا أمران اثنان، أولهما أن تكون منضبطة بأحكام الشريعة الإسلامية، فلا يكون في أحكامها ما يحرم استعمالها، وثانيهما أن لا يكون فيها مخالفة للقوانين الجاري بها العمل في الواقع الذي هو محلّ الدعوة.

وقد أشار الشيخ ابن باديس إلى التزام جمعية العلماء بهذا الشرط في الوسائل التي حدّدها لبلوغ أهدافها فقال: "وتتذرع لغايتها بكل ما تراه صالحاً نافعاً، غير مخالف للقوانين المعمول بها"¹.

ويلفت انتباهنا هنا تعبير الشيخ ابن باديس عن انضباط الوسيلة بأحكام الشرع بالصالح، للدلالة على أن أيّ وسيلة لم يلتزم فيها بذلك لا يمكن أن تكون صالحة، ولا أن يتحقق من ورائها صلاح.

ويؤكد الشيخ بيوض على نفس المعنى حين يقول: "وليس في الدنيا ما هو نفع كلّ أو ضرر كله، وإنما كل شيء هو نفع إذا استعمل كما أراد الله تعالى، ولما خلقه الله، ونحن نعتبر النفع والكرم من هذه الجهة، وإلا فكلّ شيء في الدنيا يصلح للفساد ويصلح للخير"².

¹ - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، مصدر سابق، ص. 210.

² - إبراهيم بن عمر بيوض: في رحاب القرآن تفسير سورة لقمان، مصدر سابق، ص. 83.

هذا عن المشروعية الدينية، أما المشروعية القانونية فإنّ حرص الداعية على أن لا تكون وسائله مخالفة لها يضمن لأعماله الاستمرارية، ويجول دون تمكن المعارضين من ضرب هذه الأعمال أو إيقافها بحجة مخالفتها للقوانين.

الشرط الثاني أن تكون مناسبة للهدف الذي استعملت لبلوغه، أي فيها من الخصائص اللازمة ما يكفل تحقيق ذلك الهدف، وبتعبير آخر تكون فعالة في تحقيق الهدف المرجو منها.

وقد أشار إلى هذا الشرط وصف الشيخ ابن باديس للوسيلة بالصلاح والنفع "صالحا نافعا"، فليس يكفي أن يتحقق فيها الصلاح بل ينبغي أن يتحقق منها النفع فيما استخدمت له.

وقد عبّر بعض الدارسين عن هذا الشرط بالتكافؤ بين الوسيلة والهدف، وبيّن المقصود بالتكافؤ بأنه "التماثل والموازنة بين الوسيلة والغاية التي تستعمل من أجلها، حيث لا تكون قاصرة أو ضعيفة لا توصل إلى الغاية"¹.

وتوفيرا لهذا الشرط نوّعت جمعية العلماء وسائلها، حتى تصل بكل نوع منها إلى نوع من الجمهور، وتصل به إلى الهدف الذي يناسبه، كما يؤكد ذلك أحد الدارسين بقوله: "فالمسجد كان للوعظ والإرشاد بطريقة العلماء الجديدة في فهم الدين ودوره في الحياة، والمدرسة لتعليم النشء الجديد وتخرج إطارات الثقافة العربية الإسلامية، والنادي كان للتوعية والتوجيه الوطني بالخطب والمحاضرات والمسامرات والمسرحيات والأشعار والأناشيد، والصحافة كانت لنشر المبادئ والأهداف والدعوة إلى اليقظة والدفاع عن الجمعية ضد خصومها سواء كانوا من الإدارة الفرنسية أو من قطاعات المجتمع الأهلي"².

أما الشرط الثالث فهو الواقعية، أي أن يكون فيها مراعاة للواقع المستهدف بالدعوة، كما يكون فيها مراعاة لإمكانات القائمين بالدعوة، وتبدأ هذه الواقعية بالإفادة من الوسائل التي أثبتت فعاليتها في الواقع، والحذر من اللامبالاة بما هو متاح من وسائل، والجري وراء وسائل ليست في الإمكان، كما يؤكد ذلك أحد الدارسين يصف هذه الحالة البعيدة عن الواقعية في التعامل مع الوسائل حين يقول: "فهو يحقّر الوسيلة الموجودة ويضع من قيمتها، وأما الوسيلة التي يتوق إليها، ويرى لها الفائدة والجدوى

¹ . محمد أبو الفتح البيانوني، المرجع السابق، ص 339-343.

² . أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج3، مرجع سابق، ص.87.

فإنه لا يتمكن منها، فالموجود غير مفيد في نظره، والمفيد غير متوفر لديه، إذن لا فائدة من العمل فيما لا يفيد أو فيما هو متيسر"¹.

الشرط الرابع أن تتسم هذه الوسائل بالمعاصرة، أي أن يحرص رجل الدعوة على استخدام ما وصلت إليه المجتمعات المعاصرة من وسائل في تبليغ الأفكار والإقناع بها، والتأثير على السلوك، لم تكن متاحة للناس في عصور سابقة.

ولكن الحرص على الوسائل المعاصرة ينبغي أن لا يكون مبررا يدفع الداعية إلى التخلي عن بعض الوسائل التي لا تزال تثبت نجاعتها بحجة أنها وسائل قديمة.

الشرط الأخير الذي نقف عنده هو الحذر من أن تنقلب الوسائل بحدّ ذاتها إلى غايات، فيتحول جهد العاملين عن العمل لبلوغ أهداف الدعوة بتجديد الوسائل وتطويرها، إلى جهود الهدف منها المحافظة على وسيلة ربما لم تعد ناجعة في تحقيق أهدافها.

يؤكد أحد الدارسين أنّ من أخطر الإصابات التي أصيب بها العمل الإسلامي المعاصر انقلاب الوسيلة إلى غاية، ويضرب المثال لهذه الإصابة بانقلاب التنظيم الذي هو وسيلة تمكّن من تجميع الطاقات وتنسيق الجهود من كونه وسيلة من الوسائل التي تعين العاملين على تحقيق مشروعهم إلى هدف بحد ذاته، تبرّر كثير من الأخطاء من أجل حمايته ولو كان ذلك على حساب الأهداف التي يعدّ هذا التنظيم وسيلة من وسائل تحقيقها².

كما يحرم العمل لتحقيق هذه الأهداف من الإفادة من طاقات فكرية وعملية بحجة أن لأصحابها مواقف معينة من التنظيم كوسيلة للإصلاح والتغيير، كما أنه قد يسهم في تقطيع علاقات الأخوة بين المؤمنين، يقول الشيخ ابن باديس مبصرا أن التنظيم وما يتبنّاه أصحابه من أفكار وقناعات لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال بديلا عن الأخوة الإسلامية التي تجمع بين المؤمنين: "إن هذا العبد الضعيف له فكرة معروفة وهو لن يجيد عنها ولكنه يبلغها بالتي هي أحسن، فمن قبلها فهو أخ في الله، ومن ردّها فهو أخ في الله، فالأخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد، فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى هذا الأصل: وهو أن الاختلاف في الشيء الخاص لا يمسّ روح الأخوة في الأمر العام"³.

1 - سعيد جودت: حتى يغيروا ما بأنفسهم، د.ط، المطبعة العربية، غرداية (الجزائر)، 1990، ص.28.

2 - عمر عبيد حسنة، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، د.ط، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة (الجزائر)، د.تا، ص. 124

3 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، ص.159.

هذه هي أهمّ الشروط التي إن توفرت للدعوة في الوسائل التي تختارها تكون أقرب إلى بلوغ أهدافها وتحقيق مطالبها، ويبقى أن نؤكد أن حسن استعمال هذه الوسائل من قبل الدعاة يعدّ ضماناً مهمّةً بالإضافة إلى توفر هذه الشروط لتؤدي هذه الوسائل دورها المنوط بها.

4- نماذج لوسائل دعوية من خلال تجربة الشيخ ابن باديس الإصلاحية:

في اعتقادنا أنّه عوض عرض وسائل الدعوة عرضاً نظرياً، وتقسيماً إلى وسائل مقروءة ووسائل مسموعة ووسائل مسموعة ومرئية، من الأجدى عرضها من خلال تجارب دعوية، ليتبين للدارس البعد العلمي في استخدام هذه الوسائل.

ومن التجارب الدعوية التي نرى فيها استخداماً لعدد كبير من الوسائل الدعوية تجربة الإمام عبد الحميد بن باديس الدعوية والإصلاحية.

ومن خلال قراءتنا لتراث الشيخ ابن باديس، ولما كتب عن جهوده الدعوية والإصلاحية من دراسات، ومتابعتنا لعمله الإصلاحي في مراحلها المختلفة التي مرّ بها، يمكننا تحديد أهم الوسائل التي استخدمها، أو أرشد العاملين في مجال الدعوة والإصلاح إلى استخدامها، وبعض هذه الوسائل أشار إليها في سياق بيانه لوسائل جمعية التربية والتعليم الإسلامية لتحقيق أهدافها، ومن ذلك قوله في المادة الثالثة من قانونها الأساسي: "تسعى الجمعية لمقصدها هذا، أولاً بتأسيس مكتب للتعليم، ثانياً بتأسيس ملجأ للأيتام، ثالثاً بتأسيس ناد للمحاضرات، رابعاً بتأسيس معمل للصنائع، خامساً بإرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى"¹، وأكد الإشارة إليها أحد تلاميذه بقوله: "لقد كان الإمام بن باديس يؤمن إيماناً قوياً بأن نهضة الجزائر من كبوتها لن تكون إلا على سواعد شبابها، فعمل على إعداده - تعليماً وتهذيباً - بواسطة مساجد الوعظ والإرشاد، ومدارس التربية والتعليم، ونوادي التثقيف والتوجيه، وجمعيات التكوين والتنظيم، والصحف والمجلات"².

أولاً - المساجد

الوسيلة الأولى التي نقف عندها، وقد بدأ الشيخ ابن باديس بها في العمل لبلوغ أهداف عمله الإصلاحي، وهي وسيلة المساجد، وكانت البداية بها لاعتبارات منها أنّها كانت الوسيلة المتاحة للشيخ ابن باديس بعد عودته من تونس، ومنها كذلك ما كان يعتقدّه الشيخ ابن باديس من دور عظيم للمساجد في تحقيق نهضة الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل.

¹ - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص.53.

² - عبد الرحمن شيبان، مقدمة كتاب مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص. 21.

بدأ الشيخ ابن باديس التدريس بالجامع الكبير وهو أقدم مساجد المدينة¹، إلى أن منعه مفتي قسنطينة الشيخ المولود بن الموهوب²، ثم انتقل إلى الجامع الأخضر، فربط به أكثر من ربع قرن "يعلم ويربي الشبية بالنهار، ويعظ ويرشد ويفسر القرآن، ويشرح الحديث للمواطنين الكبار بالليل"³.

وقد كان عدد الطلبة في دروسه يتراوح بين مائة و ثلاثمائة طالب بحسب السنوات، وقد رعد الحاضرين لدروسه الليلية بألفي (2000) شخص⁴.

وفي فترة تعليمه بالجامع الأخضر كان يلقي دروسا في مساجد ثلاثة، أولها مسجد سيدي قموش وهو من أملاك آل باديس منذ القدم، صادرتة الإدارة الفرنسية عند احتلال مدينة قسنطينة، ثم اشترته أسرة ابن باديس سنة 1869م، وساهم والد ابن باديس في ترميمه سنة 1924م، وأحدثت فيه مساكن للطلبة، وثانيها جامع سيدي بومعزة، وثالثها مسجد سيدي عبد المومن⁵.

كان التعليم في مساجد قسنطينة مقتصرًا على دروس في الوعظ تلقى على الكبار، أما الصغار فيُكتفى بتحفيظهم القرآن الكريم في الكتاتيب، فجعل الشيخ ابن باديس التعليم في المساجد شاملا للصغار والكبار، فكان يعلم تلاميذ الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في الصباح، وكذلك بعد الظهر، كما كان يخصص دروسا عامة للكبار بالليل⁶.

يقول الشيخ ابن باديس متحدثًا عن هذه النقلة التي أحدثها في التعليم المسجدي: "كان التعليم المسجدي بقسنطينة قاصرا على الكبار ولم يكن للصغار إلا الكتاتيب القرآنية، فلما يسر الله لي الانتصاب للتعليم عام 1332هـ، جعلت من جملة دروسي تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة وآخر العشيّة، فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار"⁷.

كما كان الشيخ ابن باديس في زيارته للمدن الجزائرية لنشر الوعي، والتعريف بفكرة الإصلاح، يختار أن يبدأ برنامج زيارته بالمسجد قبل أن يتوجه إلى أية جهة أخرى، ثم يجعل من الأعمال الأساسية في برنامجه إلقاء درس بالمسجد، يقول الشيخ ابن باديس مبينا المقاصد التي يهدف إليها من خلال التركيز

1 - عبد الكرم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.382.

2 - أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة...، ج1، مرجع سابق، ص.234.

3 - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مصدر سابق، ص.351.

4 - عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، ص.117.

5 - عبد الكرم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.384.

6 - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص.353.

7 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص.102.

على المسجد: "ماذا كنت أقوم به في كل بلدة: كنت أزور في الأكثر قبل كل شيء المسجد، لأن البداية به هي السنة، ولألفت نظر الأمة إلى حرمة المسجد وفضله، وأنه الأحق بأن يقصد عند الملمات للوقوف بين يدي الله والحصول على أقرب أحوال العبد إلى مولاه، وهي السجود، فإن العامة فيما رأيت من كثير منهم يفزعون إلى البناءات المضروبة على الأضرحة ويظهرون فيها من الخشوع والخضوع ما لا أراه منهم في بيوت الله، ومن ذا الذي يسوي بيت الخالق ببيت المخلوقين لولا انتشار الجهل وكثرة الغفلة والسكوت عن الحق، وعود من لا يجوز لهم القعود عن التعليم والتبيين،...، ثم ألقى الدرس العام في المسجد"¹.

ولأهمية المسجد في التربية والتعليم، وفقدان أغلب المساجد لوظيفتها التعليمية، بسبب تضيق إدارة الاحتلال، وقلة من يتصدى لهذه المهمة من العلماء والمرشدين، عمل الشيخ ابن باديس على توسيع دائرة التعليم المسجدي ليشمل كل مساجد الوطن، وقدم اقتراحات لتحقيق ذلك منها إنشاء كلية لتخريج فقهاء بالدين يتولون التعليم بالمساجد، وأن تسعى الجمعية لدى الحكومة لتعيين من يعلم بالمساجد التي تقع تحت وصايتها، وتتولى كل شعبة من شعب الجمعية تكليف من يقوم بالتعليم بالمساجد الحرّة².

وبعد جهود مضية استطاع الشيخ ابن باديس أن يعيد للمسجد رسالته التعليمية في كثير من المدن الجزائرية، كما شهد بذلك أحد الدارسين حين قال: "أعاد عبد الحميد بن باديس في القرن العشرين إلى المسجد الإسلامي مكانته الروحية والتربوية والتوجيهية التي كان يتمتع بها في العصور الأولى للإسلام، يوم أن كان محلاً للعبادة، ومكاناً للتعليم، ومركزاً للتوجيه الروحي، وداراً لتجيش الجيوش المجاهدة في سبيل نشر الإسلام"³.

ثانياً - المدارس:

أما الوسيلة الثانية التي استخدمها الشيخ ابن باديس في عمله الإصلاحية فهي المدارس، أو ما يطلق عليه التعليم المكتبي في مقابل التعليم المسجدي.

وكانت نواة هذا التعليم بالنسبة للشيخ ابن باديس ما كان يقوم به من تعليم مسجدي، ففي سنة 1922م كوّن الشيخ ابن باديس مع جماعة من المصلحين بقسنطينة مكتبا للتعليم (مدرسة ابتدائية)

1 - المصدر نفسه ، ص.260.

2 - عبد الحميد بن باديس: تقرير في التعليم المسجدي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص.106-107.

3 - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص. 351.

عُرف باسم المكتب العربي الابتدائي، فوق مسجد سيدي بومعزة¹، ثم نقل هذا المكتب إلى مقر الجمعية الخيرية الإسلامية سنة 1927م، وكانت دروسه فيها مقسّمة إلى أربعة أقسام، قسّمان منها: لأبناء الكتاتيب القرآنية، وقسّمان لأبناء المكاتب الفرنسية².

ثم إنَّ الشيخ ابن باديس رأى أن الظروف أصبحت سائحة لتوسيع دائرة هذا التعليم، حتى يتسع لعدد أكبر من الأطفال، فأسس جمعية التربية والتعليم الإسلامية، كما يذكر الشيخ ابن باديس نفسه حين يقول: "وفي سنة 1349هـ - 1930م رأيت أن أخطو بالمكتب خطوة جديدة وأخرجه من مكتب جماعة إلى مدرسة جمعية، فحرّرت القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الإسلامية، وقدمته باسم الجماعة المؤسسة للحكومة فوقع التصديق عليه"³.

وكان لهذه المدرسة عدة فروع في أحياء عدة من مدينة قسنطينة، وبلغ عدد الطلبة المسجلين في هذه الجمعية سنة 1934م 400 تلميذاً⁴.

ثمَّ توالى بعد ذلك فتح مدارس للتعليم في أنحاء مختلفة من القطر الجزائري، ففتحت مدرسة دار الحديث بتلمسان في صيف 1937م لتعليم البنين والبنات، "و كانت تحوي عدة أقسام، حُصِّص كل قسم لعمل من الأعمال، قسم للصلاة، وآخر للمحاضرات، وثالث للتعليم"⁵، مما يدل على أنَّ دور المدرسة في نظر الشيخ ابن باديس وإخوانه من المصلحين كان أكبر من مجرد تلقين المعلومات ونقل المعارف من جيل إلى جيل، بل هي محضن تربوي بآتم معنى الكلمة.

كما أسّست في عام 1939 مدرسة التعليم والتربية ببسكرة من قبل رجال من الجمعية وعلى رأسهم الشيخ محمد خير الدين⁶.

قدّرت مدارس الجمعية سنة 1931-1932 بـ 70 مدرسة ذات القسم الواحد والقسمين، وبلغت 85 مدرسة سنة 1938م، يزاول التعلّم بها 4047 تلميذاً، ووصل عددها سنة 1954م إلى 150 مدرسة يدرس فيها أكثر من خمسين ألف تلميذ من البنين والبنات⁷.

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص.103.

2 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.386.

3 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص.103.

4 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.386.

5 - محمد خير الدين: مذكرات، ج1، مرجع سابق، ص.182.

6 - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.387.

7 - المرجع نفسه، ص.388.

ولتطوير التعامل مع هذه الوسيلة دعا الشيخ ابن باديس إلى عقد مؤتمرات سنوية يلتقي فيها المعلمون بهذه المدارس لتدارس الصعوبات التي تواجههم وتحديد السبل الكفيلة بتطوير عملهم. وعملا من الشيخ ابن باديس للارتقاء بمستوى التعليم بهذه المدارس بتكوين المعلم الكفء للتعليم فيها، خطّط لإرسال بعثات إلى مدارس بالمشرق، منها بعثة للطالبات لإكمال دراستهن بثانوية بسوريا، ولكنّه مشروع لم يتمّ بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية¹. كما كان الشيخ ابن باديس يطمح للبلوغ بهذا التعليم المستويات العليا ولو في بعض التخصصات التي يتوفر فيها أساتذة متمكّنون من الجزائريين، فكان يعمل بجد على تأسيس كلية للعلوم الإسلامية، يكون مقرها مدينة قسنطينة، وتكون لها فروع في أهم المدن الجزائرية².

ثالثا- الصحافة

أما الوسيلة الثالثة التي ركز عليها الشيخ ابن باديس في تحقيق أهدافه الإصلاحية فهي الصحافة، فقد أدرك كما أدرك كثير من أعلام الإصلاح في القرن العشرين أهمية هذه الوسيلة في تبليغ الأفكار ونشرها بين قطاع عريض من الناس في أسرع وقت وبأيسر جهد، فاندفعوا إلى تأسيس الصحف والمجلات³، وكذلك فعل الشيخ ابن باديس، رغم معارضة بعض المصلحين في الجزائر لاستخدام هذه الوسيلة في المرحلة الأولى من مراحل سير الحركة الإصلاحية، وعلى رأسهم الشيخ البشير الإبراهيمي، لأنهم كانوا يرون أولوية أن يصرف المصلحون جهودهم في هدوء ومثابرة إلى التعليم بالمساجد والمدارس لتكوين النخبة التي ستكون الأساس الذي تستند إليه حركة الإصلاح في كلّ الميادين، ولكنّ الشيخ ابن باديس ومن وافقه من المصلحين كانوا يرون أن تهيئة الأرضية للعمل الإصلاحي في أوساط المجتمع يقتضي دخول ميدان الصحافة بما تمتلكه من إمكانيات، ولو كانت قليلة في البداية، ورجح رأي الشيخ ابن باديس ومن وافقه كما يقول الإبراهيمي: "لمقتضيات الله من ورائها حكمة"⁴.

دخل الشيخ ابن باديس ميدان الكتابة الصحفية مع بدايات عمله التعليمي سنة 1913م، فكانت حِطّة في المرحلة الأولى أن يعمل من خلال الصحافة الموجودة، فكان يكتب مقالات في جريدة النجاح لصاحبها الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي، وكان يمضيها بـ "عَبْسِي" نسبة إلى الشاعر العربي عنتره

1- عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: المرجع السابق، ص. 192-193.

2- عبد الحميد بن باديس: تقرير في التعليم المسجدي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص. 106.107.

3- عبد المجيد النجار: مشاريع الإسهاد الحضاري، مرجع سابق، ص. 151.

4- محمد البشير الإبراهيمي: نشوء الحركة الإصلاحية، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص. 5150.

بن شداد العبسي، الذي يرمز للشجاعة والإقدام والسعي لافتكاك الحرّية، ولكنه لاحظ أن صاحب هذه الجريدة ضعف "أمم رغبات ومؤثرات" بتعبير ابن باديس، ففتح جريدته لأقلام تؤيد خرافات الطريقين، وتطعن في شخصيات المصلحين¹، فتوقف الشيخ ابن باديس عن الكتابة فيها، وأسّس جريدة المنتقد بتاريخ الثاني من شهر جويلية 1925م، مفتحاً العدد الأول منها بمقولة تدلّ على نظرته إلى عالم الصحافة، والدوافع التي دفعته إلى ولوجه، وهي قوله: "باسم الله، ثمّ باسم الحق والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظمة المسؤولية التي تتحملها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون"².

والمنتقد جريدة أسبوعية يوضح اسمها الهدف من إصدار الشيخ ابن باديس لها، وهو كما شرّحه في العدد الأول منها: "ننتقد الحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء والمقاومين، وكل من يتولى شأنًا عاماً من أكبر كبير إلى أصغر صغير، من الفرنسيين والوطنيين"³.

ونظراً لشدة لهجة هذه الجريدة في نقد بدع الطريقين والممارسات المحرفة لبعض الحكام والمديرين، صدر قرار بتعطيلها بتاريخ 29 أكتوبر 1925م، بعد صدور ثمانية عشر عدد منها⁴.

يشير الشيخ ابن باديس إلى تقدّم الحركة الإصلاحية في الجزائر في استخدام الصحافة كوسيلة للإصلاح على الحركات الإصلاحية التي ظهرت في الشمال الإفريقي فيقول: "كانت أول دعوة للإصلاح أعلنت في هذا الشمال الإفريقي على لسان الصحافة، هي دعوتنا... في جريدة (المنتقد) الشهيدة، وفي خلفها (الشهاب)"⁵.

وبعد أقلّ من شهر من تعطيل جريدة المنتقد أصدر الشيخ ابن باديس جريدة الشهاب بتاريخ 12 نوفمبر 1925م، بدأت تصدر مرة في الأسبوع، ثم مرتين في الأسبوع، ولما واجهت أزمة مالية كادت تعصف بها تحولت إلى مجلة شهرية، وذلك بعد أربع سنوات من صدورها⁶.

واسمها "الشهاب" يرمز إلى الشهب التي تقذف بها الشياطين المردة التي تتخطف الأخبار، وهو مستوحى من النص القرآني: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصفافات:

¹ - أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة...، ج1، مرجع سابق، ص.130.

² - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، مصدر سابق، ص. 172.

³ - عبد الحميد بن باديس: المنتقد، العدد الأول، جويلية 1925م، انظر: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، ص. 176.

⁴ - محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978م. ص ص. 54-58.

⁵ - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، مصدر سابق، ص.148.

⁶ - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.399.

[10]، وفيه إشارة إلى ثبات الشيخ ابن باديس على الخط الذي التزمه في المنتقد وهو نقد الأوضاع الفاسدة، ولكنّ الشيخ ابن باديس . كما يشير أحد الدارسين . كان " يلين القول مع السلطات الحاكمة في فرنسا، بينما يغلظه ويحتدّ فيه مع أقطاب الاستعمار"¹.

وتعدّ هذه المرونة التي نهجها الشيخ ابن باديس في الشهاب²، بالإضافة إلى دور أبيه وأخويه لمكانتهم عند السلطات المحلية الحاكمة، سببا في استمرار جريدة الشهاب وعدم تعطيلها من قبل إدارة الاحتلال، إلى أن أوقفها الشيخ ابن باديس بنفسه سنة 1939م، بسبب التضيق في مجال الحريات الصحفية عشية الحرب العالمية الثانية، ويذكر أحد تلاميذ الشيخ ابن باديس بأن العدد الأخير من الشهاب حجز من قبل إدارة الاحتلال لأنه نشر مقالا للمرحوم المازني عنوانه (العرب ثمانون مليون ولكنهم لا يريدون أن يخيفوا أحدا)³.

ومع استمرار الشيخ ابن باديس في إصدار جريدة الشهاب، ليعبر فيها عن مواقف من القضايا المختلفة باسمه الخاص وليس كرئيس للجمعية، ساهم في تأسيس أربع صحف في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهي جريدة "السنة النبوية"، وقد صدر العدد الأول منها في أول مارس 1933م، يقول الشيخ ابن باديس مبينا الهدف من إصدارها: "تنشر على الناس ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته العظمى، وسلوكه القويم، وهديه العظيم" وهذا لـ " ليكون المسلمون مهتدين بهدي نبيهم في الأقوال والأفعال، والسير والأحوال، حتى يكونوا للناس كما كان هو صلى الله عليه وسلم مثالا أعلى في الكمال"⁴، وتوقفت عن الصدور في جويلية 1933م بقرار من وزير الداخلية الفرنسية.

ثم أصدرت الجمعية في 17 جويلية جريدة "الشرعية"، وقد أعلن ابن باديس في افتتاحية العدد الأول منها أن الجمعية ستمضي في طريقها لتحقيق الغاية التي من أجلها أنشئت، وهي " تثقيف الشعب الجزائري، ورفع مستواه العقلي، والخلقي والعلمي " وأن جريدة "الشرعية" لم تنشأ إلا لتخلف جريدة " السنة النبوية" " وستقوم مقامها، وتحلّ من القلوب محلّها"⁵، وما إن ظهر العدد السابع منها حتى

1- محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص. 58.

2- محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ط2، دار المعارف، القاهرة، د.تأ، ص.20.

3- أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة ...، ج1، مرجع سابق، ص.114.

4- محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص.131.

5- عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص.403.

عُطِّلت بتاريخ 29 أوت 1933م، رغم ما أبداه الشيخ ابن باديس فيها من مرونة سياسية، وتأكيدِه أنّ الهدف من إنشائها هو مساعدة فرنسا الديمقراطية على الارتقاء بالشعب الجزائري¹. ثمّ أصدرت الجمعية بعد حوالي عشرين يوماً من توقيف "الشيعة" جريدة باسم "الصراط السوي"، وكان مصيرها كمصير أخواتها حيث ما إن صدر العدد السابع عشر منها حتى عطلت بتاريخ جانفي 1934م، وذلك بعد أن صدر من وزارة الداخلية في 23 ديسمبر 1933م قرار ينصّ على توقيف صدور كل جريدة تسيّر على نهج الجرائد السابقة².

وبعد سنتين من توقيف جريدة "الصراط السوي"، أصدرت جمعية العلماء جريدة "البصائر" بتاريخ 27 ديسمبر 1935م، وكانت جريدة أسبوعية، وقد تحقّق لها انتشار واسع في الداخل والخارج، إذ كانت تطبع ما يقارب أربعة آلاف نسخة، وهو عدد قلّمَا بلغته جريدة أخرى في تلك الظروف³. واستمر صدور هذه الجريدة حتى قيام الحرب العالمية الثانية، وقرّرت جمعية العلماء إيقافها لئلا تُدفع إلى تأييد فرنسا في مواقفها في هذه الحرب⁴.

هذه هي الصحف التي أصدرها الشيخ ابن باديس، وعمل من خلالها على تحقيق بعض أهداف حركته الإصلاحية، وهناك صحف أخرى كان يصدرها غيره من المثقفين باللسان العربي وباللسان الفرنسي فكان يؤيدها ويشيد بمواقفها في القضايا المختلفة على صفحات جرائده، ومنها جريدة "الدفاع" (La Défense) التي كان يصدرها الأمين العمودي⁵.

وكانت هذه الوسيلة من أهمّ الوسائل التي عرّفت بأفكار الشيخ ابن باديس الإصلاحية لدى شرائح واسعة من المجتمع الجزائري في الشرق والغرب والشمال والجنوب، بل وساهمت في التعريف بحركته الإصلاحية في الخارج مغرباً وشرقاً.

كما كان الشيخ ابن باديس يعمل من خلالها على تحريك أقلام المتعلمين للكتابة في الموضوعات المختلفة التي تسهم بالارتقاء بدرجة الوعي عند الجزائريين، وكمثال على ذلك نذكر النداء التي وجهه إلى هؤلاء الكتاب للكتابة في موضوعات لتكوين رأي عام في المجتمع يشجع على التعليم القرآني، حيث يقول الشيخ مخاطباً المرشدين والكتاب: "قد تقاصرت همم المسلمين في هذه المدة الأخيرة عن

¹ - المرجع نفسه، ص. 403.

² - المرجع نفسه، ص. 404.

³ - محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، مرجع سابق، ص. 198.

⁴ - محمد خير الدين: المرجع السابق، ص. 299.

⁵ - عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص. 406.

تعليم القرآن وتعلمه، فقلّ الحافظون له، فعلى كل من نصّب نفسه لإرشاد المسلمين في دينهم أن يحثّهم على العناية بحفظ كتاب ربهم، وعلى الكتاب أن يطرقوا هذا الموضوع الكثير النواحي، هذا يأتيه من ناحية فضيلة القرآن، وذلك من ناحية اختيار المعلمين وما هي الصفات المطلوبة فيهم، والآخر من ناحية أسلوب التعليم وما هو الأقرب إلى التحصيل من أي الأساليب، ورابع من ناحية تحسين حال المعلمين وتوفير أجرتهم، وكل من هذه النواحي يلزم أن تتعدد فيها الكتابة حتى تحدث تأثيراً في المجتمع وتكوّن رأياً عاماً في الموضوع"¹.

رابعاً- الجمعيات

وكانت الجمعيات هي الوسيلة الرابعة التي استعان بها الشيخ ابن باديس لإنجاز أهداف حركته الإصلاحية، ذلك لأنه كان يدرك أن جهود الفرد مهما كانت الإمكانيات التي يمتلكها يبقى تأثيرها محدوداً في ميدان التغيير الاجتماعي، ولما لاحظته من اعتماد أعلام المشروع الإصلاحي في العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين على الجمعيات في الترويج لمشروعهم².

وقد سعى الشيخ ابن باديس في فترة مبكرة من شروعه في عمله الإصلاحي إلى الاستعانة بهذه الوسيلة، حيث اقترح على الشيخ البشير الإبراهيمي سنة 1924م العمل لتأسيس جمعية تحت اسم "الإخاء العلمي"، تتكون من علماء قسنطينة وطلبة العلم فيها، وتكون خاصة بعمالها، "تجمع شمل العلماء والطلبة وتوحد جهودهم، وتقارب بين مناحيهم في التعليم والتفكير، وتكون صلة تعارف بينهم، ومزيلة لأسباب التناكر والجفاء"³، فوافقه الشيخ البشير على رأيه، ووضع لها قانونها الأساسي بطلب من الشيخ ابن باديس، وعرض الشيخ ابن باديس الفكرة على جماعة من العلماء فاستحسنوها، لكنّ الفكرة لم تتجسد لأن الظروف لم تنهياً بعد لمثل الأعمال كما يؤكد البشير الإبراهيمي.

واستمر الشيخ ابن باديس في تهيئة الظروف لجعل هذه الفكرة واقعا، فتمكّن بعد ست سنوات من اقتراحه للفكرة، في شهر فيفري سنة 1931م من تأسيس جمعية تهتمّ بالتعليم بمدينة قسنطينة تحت اسم "جمعية التربية والتعليم الإسلامية"، وجاء في القانون الأساسي لهذه الجمعية أنّ الهدف من إنشائها هو "نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف العربية والفرنسوية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات

¹ . عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مصدر سابق، ص. 203.

² . عبد المجيد النجار: مشاريع الإسهاد الحضاري، مرجع سابق، ص. 148.

³ . محمد البشير الإبراهيمي: جمعية العلماء فكرة، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مرجع سابق، ص. 53.

المسلمين¹، ثم تهيأت له الظروف أكثر فتمكن في نفس السنة بتاريخ 5 ماي 1931م من تأسيس جمعية للعلماء المسلمين الجزائريين، وقد حرص على أن تضم علماء الجزائر بكل توجهاتهم المذهبية والفكرية، وحقق ذلك فعلا إذ شملت العضوية فيها "المصلحين والطرقين، والمالكين والإباضيين"². وقد تمكن الشيخ ابن باديس من خلال هذه الجمعية من إنجاز الكثير من أهدافه الإصلاحية، ومن توسيع دائرة عمله الإصلاحي ليشمل القطر الجزائري كله، يقول أحد الدارسين لحركات الإصلاح في العالم الإسلامي في حقّ هذه الجمعية: "على أنّ من أهم الجمعيات و أكبرها أثرا في خطة التحرر هي جمعية العلماء التي أسسها ابن باديس في قسنطينة بالجزائر، فقد كانت بحق أنموذجا تنظيميا لنشر الإصلاح، حتى إنها ليتمكن أن تعتبر حركة إصلاحية كاملة لا جمعية محدودة فحسب، وقد كانت حركة تجمع بين البعد النخبوي من العلماء والمرشدين، والبعد الشعبي من عامة الناس"³. ثم توسّعت دائرة تأسيس الجمعيات في المجالات المختلفة: الثقافية والخيرية والرياضية بتوجيه من الشيخ ابن باديس من خلال الصحافة والزيارات الميدانية، وكان الشيخ يقترح على المؤسسين لهذه الجمعيات أن يشركوا في رئاستها الأعيان والموظفين الكبار والعلماء الطاعنين في السن تشريفا لهم⁴، ودعما معنويا لهذه الجمعيات حتى يتمّ الترخيص لها من قبل الإدارة، وتصادف القبول والإقبال من قبل المجتمع. يشير الشيخ البشير الإبراهيمي إلى تزايد عدد هذه الجمعيات، وتنوّع المجالات التي تهتم بها، وإلى ما كانت تكسبه لأفراد المجتمع من آداب وكفاءات، وتقدمه من خدمات، فيقول: "وجمعيات بلغت المئات، مقسّمة على العلم والإحسان والأدب والرياضة، تبتّ في الأمة النظام، والإدارة، وآداب الاجتماع"⁵.

خامسا- النوادي الثقافية

من وسائل الشيخ ابن باديس في عمله الإصلاحي إنشاء النوادي الثقافية التي يلتقي فيها أعلام حركة الإصلاح بالمتقنين باللسان الفرنسي وبالشباب الذي لم يتهيأ بعد للإقبال على المساجد، ولا تسمح له ظروف عمله بالالتحاق بالدروس التعليمية فيها، يؤكد ذلك الإبراهيمي بقوله إنها: "وسط جامع، بين المدرسة والمجتمع، لأنّ هناك طائفة عظيمة من شباب الأمة لا تجد الجمعية وسيلة لتبليغه دعوة

1 - تركي رايح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص. 354.

2 - محمد الطاهر فضلاء، الإمام الراحل البشير الإبراهيمي، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، 1967م، ص. 164.

3 - عبد المجيد النجار: مشاريع الإسهاد الحضاري، مرجع سابق، ص. 149.

4 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص. 304.

5 - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج3، مرجع سابق، ص. 114.

الدين والعلم إلا في تلك النوادي¹، و"فيها كانت تلقى الدروس والمحاضرات، وتعدّد المؤتمرات، وتقدم التمثيليات والمسرحيات، وتقام الاحتفالات بمناسبة الأعياد الإسلامية، كما كانت مقرا لاحتضان فرق الكشافة الإسلامية والفرق الرياضية والمسرحية"².

وتتوفر بهذه النوادي مرافق تعين على تحقيق هذه الأهداف، "من قاعة للنشاطات المختلفة وغرفة للصلاة، ومقصف صغير لبيع المشروبات المباحة"³.

ومن أشهر هذه النوادي "نادي الترقّي" الذي تأسس بالجزائر العاصمة سنة 1927م من قبل جماعة من أعيان وأغنياء مدينة الجزائر، وكان الهدف من إنشائه هو أن يكون ميدانا يناقش فيه المثقفون أوضاع مجتمعتهم⁴.

وكان الشيخ ابن باديس يزور هذا النادي باستمرار لإلقاء المحاضرات فيه، والتداول في قضايا المجتمع وسبل إصلاحه مع المثقفين من رواده.

وقد شهد هذا النادي الجلسة التأسيسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واتخذته الجمعية بعد ذلك مقرا دائما لها، تعقد فيها اجتماعاتها ومؤتمراتها⁵.

كما كانت هناك نواد أخرى، منها نادي "التقدّم" بالبليدة، ونادي "النجاح" بسعيدة، و"النادي الإسلامي" بالجزائر⁶، ونادي "السعادة" ونادي "الاتحاد" بقسنطينة، وكان الشيخ ابن باديس يلتقي في هذين الناديين بنخبة المثقفين من أبناء قسنطينة⁷.

وقد كان لهذه النوادي كما يؤكد ذلك الشيخ الإبراهيمي "آثار في الشبان تساوي آثار المدرسة في الأطفال، وتفوق آثار المساجد في الشيوخ والكهول، ومن النوادي خرج الشبان إلى المساجد يؤدون حق الله، وإلى ميادين العمل يؤدون واجبات المجتمع"⁸.

ويبدو أن إدارة الاحتلال شعرت بالتأثير المتزايد لهذه النوادي في أوساط الشباب والنخبة المثقفة، فسنت قوانين للحدّ من دورها، وإخلائها من روادها، كما يؤكد ذلك الشيخ ابن باديس بقوله: "

1 - محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، د.ط، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت، ص. 27.

2 - محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ص. 292.

3 - المرجع نفسه، ص. 292.

4 - عبد الكرم بوصفصاف: المرجع السابق، ص. 393.

5 - المرجع نفسه، ص. 393.

6 - عبد المالك مرتاض: فنون النشر الأدبي في الجزائر، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص. 279.

7 - عبد الكرم بوصفصاف: المرجع السابق، ص. 394-396.

8 - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ط1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1985م، ص. 243.

فصدر قانون النوادي الذي يرمي إلى إخلائها وحرمان الكبار من التهذيب في نواديهم، بعدما حرموا منه في مساجدهم¹.

ومن القرارات التي تضمنها هذا القانون " منع النوادي الإسلامية منع بيع المشروبات، وهي مشروبات حلالية طبعاً " فانفصح القصد حتى لدى حمار توما وراكبه² كما علّق الشيخ ابن باديس. هذه هي أهم الوسائل التي استخدمها الشيخ ابن باديس في عمله الإصلاحية، ليلغ من خلالها الأهداف التي حدّدها لهذا العمل، وهناك وسائل أخرى كثيرة لم نقف عندها منها الزيارات الميدانية، ونشر الكتب، وإرسال البعثات الدراسية، ومؤسسة الأسرة، والمؤتمرات السنوية. ولو قدّر للشيخ ابن باديس أن يواكب وسائل أخرى مثل وسيلة البث الفضائي المباشر، ووسيلة الأنترنت، لسارع إلى استغلالها لنشر فكرته الإصلاحية، كما سارع إلى ميدان الصحافة. هذه هي أهم وسائل الدعوة عرضناها من خلال تجربة من التجارب الدعوية المعاصرة، لنعلم أنّ الوسائل في نشر الدعوة تتطور بتطور حياة الإنسان، وظهور وسائل اتصال وإعلام جديدة لم تكن معهودة من قبل.

¹ - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4، مصدر سابق، ص.212.

² - المصدر نفسه، ص.145.

فقه الأولويات الدعوية

1- مفهوم فقه الأولويات:

لا نريد أن نستطرد كثيرا مع التعريف اللغوي والاصطلاحي لكل من مصطلحي "الفقه" و"الأولويات"، ونذهب مباشرة إلى تحديد مفهوم "فقه الأولويات" كنوع من أنواع الفقه الضرورية للداعية.

فقد عرّفه العلامة يوسف القرضاوي تعريفا أوضح به دوره ووظيفته فقال: "وضع كل شيء في مرتبته بالعدل، من الأحكام والقيم والأعمال، ثم يقدّم الأولى فالأولى، بناء على معايير شرعية صحيحة، يهدي إليها نور الوحي ونور العقل"¹، وعرّفه في موضع آخر بقوله: "وضع كل شيء في مرتبته، فلا يؤخر ما حقّه التقديم، ولا يقدّم ما حقّه التأخير، ولا يصغّر الأمر الكبير، ولا يكبّر الأمر الصغير"².

وعرّفه محمد الوكيل في دراسته عن فقه الأولويات تعريفا جمع بين الإيجاز والدقة فبيّن أنه: "العلم بالأحكام الشرعية التي لها حق التقديم على غيرها، بناء على العلم بمراتبها، وبالواقع الذي يتطلبها"³. ومن هذه التعاريف يتبيّن لنا أن المقصود بفقه الأولويات علم يثمر في المحصل له ملكة تكسبه القدرة على معرفة ما حقّه التقديم من الأعمال وما حقّه التأخير، ملاحظا في ذلك اعتبارات تتعلق بالأعمال نفسها أو بالأشخاص أو بالظروف المحيطة.

2- مخاطر الذهول عن فقه الأولويات:

تترتب على إهمال المشتغلين بالدعوة الإسلامية لهذا النوع من الفقه آثار سلبية كثيرة على أعمالهم، نذكر منها:

أولا- الانشغال بالفروع والمواضيع الهامشية، وإهمال الأصول والقضايا الجوهرية، بسبب عدم امتلاك ميزان صحيح لمعرفة مراتب الأعمال، فترى المشتغل بالدعوة يبذل الجهود الكبيرة، ويمضي الأوقات الكثيرة في القيام بأعمال مرجوحة، و يهمل أعمالا هي أهم وأرجح.

ثانيا- العناية بالشكل أكثر من المضمون، وذلك أنّ الداعية حين يفقد العقل الراجح الذي يمكنه من إدراك الحقائق والمضامين، يصبح جلّ تركيزه على الأشكال والمظاهر.

1 - يوسف القرضاوي، دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، ص.9.

2 - يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص.34.

3 - محمد الوكيل، فقه الأولويات دراسة في الضوابط، ص.16.

ثالثاً- سوء تقدير للمصالح والمفاسد، حيث يهتم بتحقيق مصلحة على حساب مصلحة هي أهم منها، ويبدل جهوداً كبيرة لمحاربة مفسدة، ويغض الطرف عن مفسد هي أعظم منها وأكبر.

3- التأصيل الشرعي لفقه الأولويات:

إنّ شرعية استخدام مبدأ الأولويات في الدعوة أمر دلت نصوص كثيرة من كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم، ومن هذه النصوص نذكر ما يلي:

- قول الله تعالى خطاباً لنبية موسى عليه السلام: { وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى } (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثْرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) { [طه: 83-85].

وقد ذكر المفسرون أنّ موسى عليه السلام استعجل الذهاب إلى لقاء ربه عند جبل الطور قبل الميعاد شوقاً ومسارعة إلى مرضاة ربه فعوتب وعوقب بما عوقب به، لأنّه في تقدير الله تعالى فعل ما هو خلاف الأولى، ممّا ترتّب عنه تمكّن السامريّ من إضلال بني إسرائيل.

- قوله تعالى عتاباً لرسوله محمد صلى الله عليه وسلّم: { عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) } [عبس: 1-11].

وقد ذكر المفسرون أنّ سبب عتاب الله عزّ وجلّ لرسوله صلى الله عليه وسلّم أنّه صلى الله عليه وسلّم كان يرى أنّ الأولى ما كان يقوم به من دعوة لبعض أشراف قريش حرصاً على استجابتهم، لما يترتب على استجابتهم من فتح لأبواب مكة أمام الدعوة الإسلامية، ولذلك أعرض عن عبد الله بن أبي أمّ مكتوم حين جاء يسأله في وقت انشغاله بدعوة هؤلاء الأشراف أن يعلمه شيئاً من القرآن.

- قول الله عزّ وجلّ: { أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) } [التوبة: 19-20].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى استخلاصا من هذا النص وغيره أنّ جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحجّ.

- ومن السنّة النبوية نذكر النصوص الآتية التي تدلّ دلالة واضحة على مشروعية الاحتكام إلى هذا النوع من أنواع الفقه:

عن ابن عباس أن معاذًا قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنك تأتي قوما من أهل الكتاب . فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" ¹.

ويفهم من هذا التوجيه النبوي الدعوي لمعاذ رضي الله عنه أنّ أمور العقيدة تقدّم في الدعوة على كلّ الأمور، وأنّ أولى ما ينبغي أن تتركز عليه بعدها الدعوة إلى إقامة أركان الإسلام.

وعن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أيّ العمل أفضل؟ فقال: "إيمان بالله ورسوله. قيل ثمّ ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل ثمّ ماذا؟ قال: حجّ مبرور" ².

وعن عبد الله بن مسعود قال: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ العمل أفضل؟ قال: الصلاة لو قوتها، قال: قلت ثمّ أيّ؟ قال: برّ الوالدين، قال قلت ثمّ أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله، فما تركت أستزيدُهُ إلا إرعاءً عليه" ³.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل" ⁴.

4- طرق معرفة الأولويات:

إنّ معرفة الأولويات تتمّ عن طريقين هما:

أولا- طريق النصّ:

1 - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرايع الإسلام، حديث رقم 130.

2 - صحيح البخاري، 1/197.

3 - صحيح البخاري، 1/197.

4 - صحيح مسلم، ج2، ص821.

فكثير ما يتم في القرآن الكريم أو في السنّة النبوية على أولوية أفعال معينة، وتقديمها على غيرها، وبتتبع هذه الأولويات المنصوص عليها نلاحظ أنّ بعضها يمكن إدراك علته، وبعضها الآخر خفيت علته، وأغلب القسم الأول يتعلّق بالمعاملات، والغالب في الثاني ما يتعلّق بالعبادات.

فالأولويات المنصوصة في مجال العبادات سواء كانت معقولة المعنى أم غير معقولة، فينبغي الوقوف عندها، لأنّ الأصل في العبادات هو الثبات وعدم التغيّر، ولو تغيّر الزمان والمكان.

أما الأولويات في مجال المعاملات فهي وإن كان بعضها معللاً بالنص، فأغلبها عرفت علته بالاستنباط.

ومن هذه الأولويات المنصوص عليها يمكن استخلاص بعض المرجّحات التي يستفاد منها في العمل الدعوي، نذكر منها:

- الإيمان والطاعة: فكثير من الأولويات المنصوص عليها قائمة على هذا المرجّح، قال الإمام القراني في الفروق ممثلاً للتفضيل اعتماداً على هذا المرجّح: "أحدها تفضيل المؤمن على الكافر، وثانيها تفضيل أهل الكتاب على عبدة الأوثان، فأحلّ الله طعامهم وأباح تزوّجنا نساءهم دون عبد الأوثان"¹.

- العلم: إن جميع المسؤوليات التي تتوقف على العلم، يقدّم فيها العالم على الجاهل، ففي الصلاة مثلاً يقدّم الفقه بسبب ارتباط صحتها به، قال الإمام السيوطي: "لو اجتمع الأفقه والأقرأ والأورع والأصح، قدّم الأفقه عليهم، لاحتياج الصلاة إلى مزيد الفقه لكثرة عوارضها"².

- الأهمية: إن كلّ ما هو أهمّ يقدّمه الشرع على ما هو مهمّ، فلا يجوز الاشتغال بالمهم عن الأهم، ولا بالواجب على حساب الأوجب إلّا بقدر.

- الأصلحية: ويقصد بها كفاءة الفرد لمسؤولية معينة، فيقدّم دائماً الأصلح لتلك المسؤولية والمهمّة، وقد صاغ العلماء هذا المرجّح في القاعدة التالية: "يقدّم في كلّ موطن وفي كلّ ولاية من هو أقوم بصالحها"³.

ومن أمثلة اعتماد هذا المرجّح رفض النبي صلّى الله عليه وسلّم تولية أبا ذر رضي الله عنه الإمارة وقد طلبها منه، رغم أنه كان من أسبق السابقين، وقوله له موجّهاً: "يا أبا ذر إنك ضعيف، وغنّها أمانة، وإنّها يوم القيامة خزي وندامة، إلّا من أخذها بحقّها وأدى الذي عليه فيها"¹.

1 - القراني، الفروق، 2/214.

2 - الأشباه والنظائر، ص.339.

3 - القراني، مرجع سابق، 3/206.

وجاء في أعلام الموقعين أن الإمام أحمد بن حنبل سئل عن رجلين أحدهما أنكى في العدو مع شربه للخمر، والآخر أدين، فقال يغزى مع الأنكى في العدو، لأنه أنفع للمسلمين، وبهذا مضت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يولي النفع للمسلمين على من هو أفضل منه، كما ولي خالد بن الوليد على حروبه لنكايته في العدو، وقدمه على بعض السابقين من المهاجرين والأنصار، مثل عبد الرحمن بن عوف وسالم مولى أبي حذيفة وعبد الله بن عمر، وهؤلاء ممن أنفق من قبل الفتح وقاتل، وهم أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا، وخالد ممن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فإنه أسلم بعد صلح الحديبية².

ثانيا- طريق الاجتهاد: والطريق الثاني لتحديد الأولويات هو اعتماد مسالك الاجتهاد وضوابطه، وأكثر ما يتعلّق بالدعوة وفقهها إنما يتمّ تحديده عن هذا الطريق.

والمصادر الساسية لهذا الاجتهاد هي: القياس والاستحسان ومراعاة المصلحة ومراعاة العرف. ويحتاج هذا الطريق في تحديد الأولويات إلى تمكّن علمي يسمح للداعية من توظيف هذه المصادر للوصول إلى أحكام صحيحة.

5- ضوابط الأولويات في المجال الدعوي:

إن تقديم عمل ما وإعطاءه الأولوية على غيره في مجال الدعوة يتمّ وفق ضابطين أساسيين، أولهما الفقه بمراتب الأحكام الشرعية، وثانيهما الفقه بالواقع الذي تستهدفه الدعوة، وفيما يلي نتناول هذين الضابطين بشيء من البيان.

أولاً- الفقه بمراتب الأحكام: إن الأحكام الشرعية مراتب، منها العلى ومنها الأدنى، والقطعي والظني، والراجح والمرجوح، والفاضل والمفضول، ثمّ إن المقاصد التي تقوم عليها الأحكام درجات كذلك، ففيها الضروري وغير الضروري، والأصل والمكمل، والخاص والعام. فعلى الداعية أن يكون على علم بهذه المراتب، ليتمكّن من وضع كلّ شيء في مرتبته، ويعطيه وزنه الذي أعطاه الشرع له.

وكلّ جهل بمراتب الأحكام يؤدي على اختلال توازنها عند تطبيقها، واضطراب سلّم أولوياتها، وربما نجم عن هذا الاختلال مفاسد.

1 - صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، 1457/3.

2 - إعلام الموقعين، 106/1.

ومن العلم بمراتب الأحكام أن يدرك الداعية أنّ المأمورات الشرعية ليست على درجة واحدة، فمنها الواجبات ومنها المندوبات، والواجبات درجات، فالأركان الخمسة مثلا كلّها واجبة إلا أنّ بعضها أهمّ من بعض، وهو ما أشار إليه الإمام الشاطبي في الاعتصام بقوله: "إن القواعد الخمس أركان الدين متفاوتة الترتيب، فليس الإخلال بالشهادتين كالإخلال بالصلاة، ولا الإخلال بالصلاة كالإخلال بالزكاة، ولا الإخلال بالزكاة كالإخلال برمضان، وكذلك سائرهما مع الإخلال"¹.

والمندوبات كذلك درجات، منها المندوب المؤكّد أو سنّة الهدى، ومنها النفل أو المستحب، ومنها المندوب الزائد أو الأدب والفضيلة.

ومن العلم بمراتب الأحكام أن يدرك أنّ المنهيات مراتب، فمنها المحرّمات ومنها المكروهات، والمحرّمات درجات، فمنها المحرّم لذاته، ومنها المحرّم لغيره أو لعارض، والمكروهات لا يترتّب على فعلها العقاب، ويستحق تاركها الثواب.

كذلك المنهيات على درجات، منها الكبائر، ومنها الصغائر، والكبائر متفاوتة: الكبير والكبير والمتوسط بينهما، قال الإمام الشاطبي: "ويعرف ذلك بكونها واقعة في الضروريات أو الحاجيات أو الكماليات، فإن كانت في الضروريات فهي أعظم الكبائر، وإن وقعت في التحسينيات فهي في أدنى رتبة بلا إشكال، وإن وقعت في الحاجيات فمتوسطة بين الرتبتين"².

وهذا التفاوت في المأمورات والمنهيات ينبغي استحضاره من قبل الداعية لأنه يحدّد له ما الذي ينبغي أن يبدأ به، وما الذي لا يضرّ تأخير، ويعينه في انتهاج أنسب الأساليب في الدعوة: حتّى على امثال المأمورات، وتنفيها من مواقع المنهيات.

وقد ناقش علماءنا مسألة مهمّة تبعا لبيانهم لمراتب المأمورات والمنهيات وهي أيهما أهمّ ترك المحرّمات أم فعل الواجبات؟، وقد رجّح الإمامان ابن تيمية وابن القيم جانب المأمورات على جانب المنهيات لاعتبارات كثيرة، ولأيهما أهمّيته في مجال الدعوة حيث يقرر ضرورة التركيز على توجيه المخاطبين بالدعوة إلى القيام بالواجبات أولا.

كما ينبغي أن يعلم الداعية أنّ مراتب الحكم الشرعية المستنبطة من الكتاب والسنة تتفاوت من حيث القطعية والظنية ثبوتا ودلالة، فمنها ما هو قطعي الثبوت قطعي الدلالة، ومنها ما هو قطعي الثبوت وظني الدلالة، ومنها ما هو ظني الثبوت وظني الدلالة.

¹ - الشاطبي، الاعتصام، 58/2.

² - المرجع نفسه، 38/2.

ومما يترتب على علمه بهذا الأمر أن يدرك أنّ الاتفاق حول الحكام الظنية المتحملة للفهوم المتعدّدة ليس ضرورياً، وفي هذا الاختلاف رحمة وتوسعة على الأمة، وهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فلذلك لا يكون الإنكار في المسائل الخلافية المبنية على اجتهاد سليم.

كذلك ينبغي أن يعلم أنّ العمال تتفاوت من حيث المصالح التي تحقّقها، فما حقّق مصلحة ضرورية قدّم على ما يحقّق حاجياً أو تحسينياً، بل بين ما يحقق الضرورية تفاوت، قال الإمام الشاطبي: "الأمور الضرورية ليست في الطلب على وزن واحد، فالطلب المتعلق بأصل الدين ليس في التأكيد كالنفس، ولا النفس كالعقل، إلى سائر أصناف الضروريات"¹.

ثانياً- الفقه بالواقع:

إن الفقه بالواقع والظرف الذي يعيش فيه الداعية أمر ضروري، وكلّ جهل فيه يوقع في أخطاء قد تكون جسيمة.

فلا بدّ من دراسة الإمكانيات الذاتية المادية والبشرية، تفادياً للاقتحام في مجالات تتجاوز هذه الإمكانيات، كما لا بدّ من التقدير الواعي لقوة المعارضين للدعوة، كما لا بد من المعرفة الدقيقة للبنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها.

فدراسة الواقع بهذا العموم الواسع هو السبيل لحسن تطبيق الأولويات، فكّلما كانت هذه الدراسة أدق وأعمق، كان تحديد الأولويات أصحّ وأسلم.

إن الواقع قد لا يكون مناسباً لتنزيل حكم فيتعيّن على الداعية الصبر حتى يتهيأ ظرف أحسن، فقد ترك النبي صلّى الله عليه وسلّم إعادة بناء على قواعد إبراهيم مخافة إثارة فتنة عند قوم حديثي عهد بكفر، ولم يتمكّن الإسلام من نفوسهم بعد، كما امتنع عن قتل بعض المنافقين اعتباراً لمكانة لازالت لهم في نفوس الناس.

وهذا الإيقاف أو التأجيل لتنزيل بعض الأحكام لا يترتب عليه الإثم، لأنّ التكليف كما يقول العزّ بن عبد السلام: "تارة يسقط بالامثال، وتارة يسقط بتعدّر الامثال"².

7- نماذج لتحديد الأولويات في العمل الدعوي المعاصر:

النماذج الدعوية المعاصرة التي يمكن أن نستلهم منها أمثلة تطبيقية لفقه الأولويات في المجال الدعوي كثيرة، نقتطف عند نموذجين منها، أولهما يتعلق بجمعية العلماء واختياراتها في ميدان الإصلاح، والثاني

¹ - الموافقات، 209/3.

² - قواعد الأحكام، 51/1.

يتعلق بالاقترحات التي قدّمها العلامة الشيخ يوسف القرضاوي كأولويات للعمل الدعوي في المراحل المقبلة في كتابه "أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة.

أولاً- الأولويات في عمل جمعية العلماء: إنّ الدارس لأعمال الجمعية وأعلامها يجد أمثلة تطبيقية كثيرة عن التزامها بفقهاء الأولويات في القيام ببعض أعمالها، وفي اختيارها لمجال حركتها، نذكر من هذه الأمثلة:

- تقديم الجمعية للاشتغال بالتربية والتعليم على النضال السياسي والمسّاح لتحرير الوطن من الاحتلال الفرنسي، وذلك لاعتبارات عديدة، منها ما يتعلّق بالأشخاص الذين توجّهت إليهم الجمعية بدعوتها، فكانت ترى أن الأولى تحريرهم أولاً فكرياً ونفسياً كمقدّمة ضرورية لتحريرهم جسدياً، ومنها ما يتعلّق بالواقع الذي تحرّكت فيه الجمعية، والذي كان لا يسمح لأيّ عمل سياسي يكون هدفه تحقيق الاستقلال صراحة بالوجود والعمل.

وقد اتفق الشيخان ابن باديس والإبراهيمي في دراستهما لواقع المجتمع الجزائري أنّ البلاء الذي نزل بالمجتمع الجزائري يعود إلى عاملين: داخلي يتمثّل في سيطرة الفكر الخرافي عن طريق الطرق الصوفية المنحرفة، وعامل خارجي يتمثّل في الاحتلال الفرنسي، وحدّداً الأولوية في عملهما الإصلاحية في تخليص الأمة الجزائرية ممّا سمياه بالاستعمار الروحي أو الداخلي، لتمكينها من افتكاك حريتها من الاحتلال الفرنسي.

- تحديد الجمعية أولوية تكوين متعلّمين تعليماً متوسّطاً، لا يتوسّع ولا يتعمّق في تعليمهم، وفي تخصّصهم، لأنّ لا الإمكانيات تسمح، ولا الوقت والظرف الذي عليه المجتمع الجزائري يسمح بأن تطول مدّة تكوين هؤلاء الجنود الذين سيعملون على افتكاك أفراد المجتمع من القيادات الفاسدة.

- كذلك اختيار المدخل التعليمي التربوي وتقديمه على غيره من المداخل الأخرى للإصلاح، لأنّ أعلام الجمعية كانوا يرون أنّ الضامن لنجاح الإصلاح في كلّ الميادين هو تكوين الإنسان الصالح، يقول أحد هؤلاء الأعلام معبّراً عن هذه القناعة: "لم يكن عملي خاصاً بميدان التعليم، ولكن يتناول جميع نواحي الأمة، ووظيفتي غسل العار عن الأمة، وتطهيرها من أدناسها بشباب صالح مثقّف بالثقافة الصحيحة، أكفاء لكل ما يسند إليهم"¹.

¹ - محمد علي ديبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، مرجع سابق، ص. 106.

ثانياً- أولويات الدعوة في نظر العلامة يوسف القرضاوي: اجتهد العلامة يوسف القرضاوي في تحديد مجموعة من الأولويات للعمل الدعوي المعاصر في مجالات مختلفة، نختار أن نقف عند الأولويات التي اقترحها في مجال الدعوة والتثقيف العام، حيث يؤكد على ضرورة توسيع الدعاة لعملهم ليشمل شرائح المجتمع، المثقفين، عامة الشعب، الطبقة العاملة، رجال المال والعمال، والنساء.

ويجعل المثقفين أول هذه الشرائح وأولها بالتركيز ، ثم يحدّد منهج التعامل مع هذه الفئة بطريقتين: الطريق العلاجي والطريق الوقائي، " فالعلاجي يكون بتصحيح الأفهام الخاطئة عند المثقفين، وإقناعهم بالأدلة العلمية الموضوعية الهادئة، لا بالشتائم والمهاترات، ولا الأقوال الخطابية، ودلالتهم على المصادر الموثقة ليعرفوا منها ما يجب أن يعرفوه عن الإسلام، كتابه ورسوله وعقيدته وشريعته وتاريخه وحضارته"¹.

" والطريق الثاني هو الطريق الوقائي، ونعني به وضع ثقافة صحيحة موثقة عن الإسلام، تجمع بين الدقة العلمية، والوضوح البياني، مهمتها إعطاء جرعات كافية في فهم الإسلام، وتصحيح المفاهيم التي شاع الخطأ في تصوّرها، والغرض من ذلك تحصين الشباب من سموم الأفكار الغازية"².

ويؤكد الشيخ القرضاوي على ضرورة تقديم نماذج من الدعاة لهم القدرة على مخاطبة العقول لمثقفة، ويعد عن هذا المجال من سمّاهم بالوعاظ الشعبيين والكتّاب الشعبيين.

أما الفئة الثانية التي ينبغي أن تهتم الدعوة الإسلامية بها فهي الجماهير الشعبية، التي لا تنجح في أعمالها دون التأثير فيها، وتحريكها لتكزن سندا قويا لأفكارها ومشاريعها.

ولا يتحقق لها ذلك ما لم تتبنى الدعوة الإسلامية هموم الناس وتنفعل بقضاياهم، وأولى ما ينبغي أن تركز عليه كما يرى الشيخ القرضاوي:

- تبصيرهم بالحقائق، وتجنّب تخديرهم بالأحلام.

- تصحيح المفاهيم المغلوطة لديهم.

والفئة الثالثة هي الطبقة العاملة، التي تتمثل في العمال والحرفيين بمستوياتهم المختلفة، الذين تتكون منهم اليوم - خاصة في المدن الكبرى - تجمعات ضخمة.

¹ - أولويات الحركة الإسلامية...، ص.

² - المرجع نفسه، ص.

ويلاحظ الشيخ القرضاوي أن تأثير الدعوة الإسلامية فيهم محدود جدا، بسبب تقصير الدعاة في توعية أفرادها بحقيقة الإسلام ورسالته في الحياة، وبأنّ نظامه الاقتصادي والاجتماعي والقانوني هو أفضل نظام يضمن لهم حقوقهم المادية والمعنوية.

أما الفئة الثالثة التي ينبغي للدعوة الإسلامية أن تهتم بها وتعمل على التأثير فيها فهي فئة التجار ورجال المال والأعمال، لما لهذه الفئة من إمكانات معتبرة إن لم توجّه وجهة الصلاح، سخرت للإفساد في الأرض.

وعمل الدعاة مع هذه الفئة كما يقترح الشيخ القرضاوي ينبغي أن يأخذ وجهتين، الوجهة الأولى إنقاذ من هو بعيد عن الدين منهم من غفلته، وإحياء معاني الإيمان في نفوسهم، والوجهة الثانية إرشادا من كان متدينا مستقيما منهم إلى المجالات الأجدد أن ينفقوا فيها أموالهم، فأكثرية من هذه الفئة تنفق مبالغ كبيرة كل عام في الحج والعمرة، وتحسب أنّ ذلك أقصى ما يمكن أن تعبّر به عن تدينها. والفئة الأخرى التي يجب على الدعاة الاهتمام بها هي فئة النساء، باعتبار أنهن أصبحن يمثل أغلبية في مجتمعات إسلامية كثيرة، وباعتبار دورهن الخطير في تربية الأولاد وتنشئتهم، ودورهن المتزايد في الحياة الاجتماعية.

ويرى الشيخ القرضاوي أن أولى الأولويات الدعوة في هذا المجال هو تكوين داعيات مسلمات للقيام بالدعوة في هذا الوسط، ومن دون ذلك لا يكتب للدعوة النجاح فيه.

فقه الموازنات الدعوية

1. مفهوم فقه الموازنات:

عرّف فقه الموازنات تعريفا دقيقا من قبل أحد الدارسين بأنه "فهم المعادلة بين الأحكام الشرعية والواقع وفق معايير خاصة تسهم في نجاح الدعوة الإسلامية"¹ ومن هذا التعريف ومن إشارات كثيرة وردت في تعريفات أخرى نفهم أنّ فقه الموازنات علم يكسب المحصّل له القدرة على الترجيح بين المصالح بعضها بعضا، وبين المفاسد بعضها بعضا، وبين المصالح والمفاسد، في حال تزامهما.

¹ - معاذ محمد أبو الفتح البيانوني، فقه الموازنات الدعوية،

2. أهمية فقه الموازنات للعمل الدعوي:

كثيرا ما يجد الداعية نفسه وهو يقوم بعمله أمام مصلحتين تعودان على دعوته لايمكن الجمع بينهما، فيحترار أية مصلحة يقدم منهما، وأيتهما يؤخر.

وقد يجد نفسه أمام مفسدتين لا يمكن له تجنبهما معا، فيحترار في أية مفسدة يقع ليستمر في طريق إنجاز أهداف دعوته.

كما يجد نفسه في أحيان كثيرة كذلك أمام مصلحة لدعوته ارتبط تحقيقها بالوقوع في مفسدة، فيتردد بين التفريط في المصلحة مهما كانت كبيرة ويتعد عن المفسدة من باب أن الغاية لا تبرر الوسيلة في دين الله، أو الإقدام على الوقوع في المفسدة تحقيقا للمصلحة المعتبرة.

و مما يعين الداعية على تجاوز الحيرة في مثل هذه المواقف قدرته على الترجيح بين المصالح المتزاحمة، والمفاسد المتزاحمة، والمصالح والمفاسد.

وإنما يكتسب هذه القدرة من الدراسة الجادة والمعمقة لفقه الموازنات، التي تمكنه من معرفة المصالح المعتبرة في الشريعة الإسلامية ودرجاتها، والقواعد التي يلتزمها في الموازنة بين مفسدتين وبين مصلحة ومفسدة عند التزاحم.

وتظهر أهمية هذا الفقه في عمل الداعية حين يريد أن ينتقل بعمله إلى مجالات لا تكاد تخلو من مفساد تعترض طريقه، أو على الأقل من تزاحم بين مصالح ومفاسد يتحتم عليه الموازنة بينها.

3. ضوابط الموازنة الصحيحة :

ولتكون نتائج الموازنة التي يقوم بها الداعية بين ما يتزاحم أمامه من مصالح ومفاسد صحيحة ومشروعة، ينبغي أن يلتزم بمجموعة من الضوابط التي استخلصها العلماء من استقراءهم لنصوص الشريعة الإسلامية وملاحظتهم لمقاصدها.

ونقسم هذه الضوابط بحسب الحالات التي تتم فيها هذه الموازنة إلى ثلاثة أقسام:

أولا. ضوابط الموازنة بين المصالح:

حدد الأصوليون مجموعة من الضوابط تعين الداعية على الموازنة الصحيحة بين المصالح إذا تزاحمت، ومن هذه الضوابط:

- تقدم المصلحة الكبيرة على المصلحة الصغيرة (المصلحة المتعلقة بضرورة أكبر من المصلحة المتعلقة بحاجي...).

- تقدم المصلحة المتيقنة على المصلحة المظنونة أو الموهومة.
- تقدم مصلحة الكثرة على مصلحة القلة.
- تقدم المصلحة الدائمة على المصلحة العارضة أو المنقطعة.
- تقدم المصلحة الجوهرية والأساسية على المصلحة الشكلية والهامشية.
- تقدم المصلحة المستقبلية القوية على المصلحة الآنية الضعيفة.

ثانيا. ضوابط للموازنة بين المفاسد:

من الضوابط التي تعين الداعية على الموازنة الصحيحة بين المفاسد أن يدرك أن المفاسد ليست في مرتبة واحدة، فالمفسدة التي تعطل ضرورياً أكبر من مفسدة تعطل حاجياً، والتي تمس حاجياً أعظم من التي تتعلق بتحسيني، والمفسدة التي تضر بالمال دون المفسدة التي تضر بالنفس، وهذه دون التي تضر بالدين والعقيدة.

من الضوابط التي قررها الأصوليون للموازنة بين المفاسد الضوابط التالية:

- يرتكب أخف الضررين وأهون الشرين.
- الضرر لا يزال بضرر مثله أو أكبر منه.
- يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

ثالثا. ضوابط الموازنة بين المصالح والمفاسد:

الضابط العام الذي يعين الداعية على الموازنة بين مصلحة ومفسدة تراحمها أن العبرة للأغلب والأكثر في الحكم، فإذا كانت المفسدة أكثر وأغلب على المصلحة وجب الامتناع عن الأمر الذي تكون هذه صفته، ولا عبرة لما يكون فيه من منفعة قليلة.

أما إذا كانت المصلحة هي الأغلب، فيقبل الداعية على الأمر، ولا يمتنع عنه بسبب ما فيه من مفسدة يسيرة.

بالإضافة إلى هذا الضابط العام، هناك ضوابط أخرى يمكن أن تهدي الداعية إلى الموازنة الصحيحة، منها:

- درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة.
- تغتفر المفسدة العارضة من أجل المصلحة الدائمة.
- لا تترك مصلحة محققة من أجل مفسدة متوهمة.

4. نماذج تطبيقية لفقه الموازنات من القرآن والسيرة:

نذكر هنا بعض النماذج التطبيقية لاستخدام الأنبياء عليهم السلام و بعض الدعاة المؤمنين -الذين زكى القرآن الكريم عملهم وأقره - لهذا النوع من الفقه في الموازنة بين أمور واجهتهم أو أعمال أقدموا عليها.

ومن هذه النماذج:

- نموذج يوسف عليه السلام: حيث تولى عليه السلام على خزائن مصر، وهم قوم كافرون، ومعلوم- كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله-: (أنه مع كفرهم لا بد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وجنده ورعيته، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد مما يراه هو من دين الله، فإن القوم لن يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل قوله تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم) .

- نموذج الرجل الصالح صاحب موسى عليه السلام: حيث فعل هذا الرجل الصالح -الذي آتاه الله من لدنه علما، ووجه موسى عليه السلام إلى التعلم منه- بعض المفاصد أنكرها موسى عليه السلام عليه دفعا لمفاصد هي أعظم منها، أو اعتبارا لمصالح هي أعظم وأكبر، كما يبين ذلك قول الله تعالى على لسانه: (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملكا يأخذ كل سفينة غصبا) (الكهف:79)، فإحداث خرق في السفينة مع بقائها في ملك أصحابها أخف من ضياعها أصلا بأن يأخذها الملك غصبا.

- نماذج من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم: هناك نماذج تطبيقية كثيرة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل بوضوح على احتكامه صلى الله عليه وسلم إلى هذا النوع من الفقه واجتهاده في ذلك ، ومن هذه النماذج نذكر:

- ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمره أصحابه بقطع نخيل يهود بني النضير أو إحراقها، رغم ما في ذلك من مفسدة لما يترتب عنه من دفع مفسدة هي أكبر، ودفع بني النضير إلى الخروج من حصونهم، وقد أشار إلى هذا الأمر قول الله تعالى في سورة الحشر: (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين)(الحشر:5).

-وفي صلح الحديبية رأينا النبي صلى الله عليه وسلم يغلب المصالح الجوهرية والأساسية والمستقبلية على المصالح والاعتبارات الشكلية، فقبل من الشروط ما قد يظن لأول وهلة أن فيها إجحافا بالجماعة المسلمة أو رضا بالدون، ورضي أن تحذف البسمة المعهودة من وثيقة الصلح، ويكتب بدلها باسمك اللهم، وأن يحذف منها اسم الرسالة الملاصق لاسمه الكريم محمد رسول الله، ويكتفى باسم محمد بن عبد الله، ليكسب من وراء ذلك الهدنة التي يتفرغ فيها لنشر الدعوة، ومخاطبة ملوك العال، وقد سمى القرآن هذا الصلح فتحا مبينا، وتحقق من ورائه خير كبير للدعوة الإسلامية.

5. نماذج لفقهاء الموازنات من عمل الدعاة:

ونذكر هنا بعض الأمثلة التطبيقية لاستخدام الدعاة المقتفين لأثر الأنبياء لهذا النوع من الفقه في الموازنة بين ما يعرض لهم من مصالح ومفاسد متزاحمة، ومن هذه الأمثلة:

- ما وجه به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعض أتباعه حين أرادوا أن يمنعوا بعض جنود التتار من شرب الخمر، باعتبار ذلك منكرا يجب تغييره، حيث وظف هذا الفقه لبيان لهم أن شرب هؤلاء للخمر مفسدة صغيرة تمنعهم من ارتكاب مفاسد هي أكبر وأعظم.

- دعوة الشيخ إبراهيم بيوض رحمه الله التلاميذ الجزائريين إلى الدراسة في المدرسة الفرنسية، رغم ما في ذلك من مخاطر ومفاسد، لتحقيق هدفين اثنين، أولهما يتمثل في تمكين مجموعة من الجزائريين من تولي مناصب في مختلف الإدارات، لجعل الإدارة في خدمة الفرد الجزائري، وثانيهما التمكن من توجيه من هؤلاء التلاميذ لاستكمال دراستهم في الثانويات والجامعات الفرنسية أو الأوروبية للتخصص في العلوم الضرورية للحياة المعاصرة، كعلم الطب والصيدلة والتجارة والقانون، لتحرير مجتمعهم من قبضة الأطباء اليهود والفرنسيين.

- كذلك فتوى الشيخ بيوض بجواز شراء مكس الأسواق، حيث كان هذا المكس يعرض للبيع فيشتره اليهود، و يأخذون من الباعة المسلمين أضعاف ما يقرره القانون، فأثروا وجمعوا من ذلك أموالا كثيرة، يقول الشيخ مبررا فتواه باعتماده فقه الموازنات: (إلى متى ونحن صابرون على الظلم؟، إن المكس ضريبة واجبة في الأسواق، فيجب أن نتولاه لنرفع الظلم وغطرسة اليهود على المسلمين)، ويقول معلقا على بعض العلماء الذين عارضوا فتواه: (مساكين هؤلاء المعرضون، إنهم لا يفهمون الدوافع والنتائج الحسنة لشراء المكس، وأنها الرأفة بالفقير، ودفع الذلة عن الأهالي المسلمين).

- العلامة يوسف القرضاوي وفقه الموازنات: يقول الشيخ: دعيت إلى الكتابة منذ بضعة عشر عاما في مجلة الدوحة القطرية، وهي مجلة أدبية ثقافية عامة، وأغلب من يشرف عليها علمانيون، والطابع الغالب عليها إن لم يكن مجافيا للإسلام فليس مواليا له ولا مدافعا عنه.

وترددت في الاستجابة طويلا، ثم رأيت بعد الموازنة أن كتابتي فيها أجدى وأنفع من مقاطعتي لها، فإن قراءها يمثلون قاعدة عريضة من المثقفين، وجلهم ممن لا يقرؤون المجلات الإسلامية، فهم غير قراء مجلة الأمة وأمثالها، ولا بد لنا أن نوصل كلمتنا إلى هؤلاء، أداء لواجب البلاغ إذا أتيت لنا الفرصة. وهذا ما يجعلنا نقبل الحوار مع بعض مندوبي الصحف والمجلات التي قد لا نتفق معها في خطها كثيرا أو قليلا.

ولا يزال بعض الإخوة ينكرون على من يكتب في الصحف اليومية التي لا تلتزم بالخط الإسلامي الصريح... بل هناك من يرى مقاطعة أجهزة الإعلام كلها، مقروءة ومسموعة ومرئية، لما يشوبها من انحراف وفساد في الفكر والسلوك، ناسين ما لها من خطر بالغ على العقول والضمائر، وأن تركها لا يزيدها إلا فسادا وخبالا..

ومن نظر إلى الأمر في ضوء فقه الموازنات وجد أن الدخول إلى هذه الميادين ليس مشروعاً فحسب، بل هو مستحب، بل واجب، لأنه وسيلة إلى أداء أمانة الدعوة ومقاومة الباطل والمنكر بقدر المستطاع، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كما هو مقرر ومعلوم.

والرخصة، والموازنة بين مراتب تطبيق الأحكام الشرعية في البلاد الإسلامية وفي غيرها، والموازنة بين مراتب الجهاد في العصر الحاضر.